

أمير حسين



نوفلا

كسر وضاعف

دار الرؤية للنشر والتوزيع

كسر وضاعف

امير حسين

بين الحب والكراهية  
تموت حياة ويعيش موت.



جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

رقم الإبداع : 2747 / 2016 I.S.B.N : 978-977-426-188-6

15 شارع سوريا - المهندسين - ج. م. ع

ماتفا: 002 02 33446727 فاكس: 002 02 33026637

E-mail: Rayatop@hotmail.com

WWW.DARALRAYA.COM

## كسر مضاعف

للمؤلف

أمير حسين

عدد الصفحات : 152 صفحة

عدد الألوان : 1 لون

مراجعة لغوية : قسم المراجعة بالدار

تصميمات : القسم الفني بالدار

تصميم الغلاف : أحمد فرج



إلى الحقيقة

وإلى الحلم



يجوز تصوير أو نقل أو نسخ أو توزيع أو نشر  
هذه المادة بأي طريقة إلا بموافقة خطية من  
دار الـرأية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

لدار الـرأية للنشر والتوزيع

2016



رقم الإيداع : 2016 / 2747

التريـم الحولي : 6 - 188 - 426 - 977 - 978

15 شارع سوريا - المهندسين - الجيزة - جمهورية مصر العربية  
تليفون :

002 02 33451851 - 33026637 - 33446727

E-mail: rayatop@hotmail.com



### (على بعد خطوة)

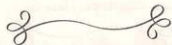
كلنا يُؤلّد مرتين ، ربما لا نذكر لحظة المخاض الأولى ، لكننا نعيش الثانية هملء أرواحنا ، ننسلخ من برزخها حينما نتلقى صدمة العمر ، فنجد أنفسنا نشوق بين عاصفة قيامتها لنبعث من جديد ، ربما في جسد آخر تسكنه روح أخرى ، لكننا لا نعود أبداً كما كنّا ، أتذكر يوم تُوفيّ صديقي "شريف" في حادث سيارة وكيف كانت لحظة فارقة في حياة "أيمن" أخيه ، فوجئنا به بعدها قد صار يغض طرفه عن الفتيات ، بعدما كنّا نراه كل يوم برفقة فتاة مختلفة ، أكانت تلك هي اللحظة المقصودة؟

- الأعمار بيد الله يا نبيل يا بني .

- فاضل لي قد ايه؟

- تقريباً شهرين .

يصارحني الدكتور "عبد اللطيف" وأنا أجلس أمامه في غرفة الفحص المعتمة ، غير مصدق لما يقول ، أي شهرين؟! أحاول أن أعارضه فيتحاشى النظر إلى وجهي ، متصنّعاً تدوين شيء ما في تقريره الطبيّ ، ملامحه المضطربة وارتباك القلم



على بعد خطوة قد لا نصل ،  
وبعد أيّ رحيل يمكن أن نبقى .



بين أصابعه يشيان بأنه لا يجد حتى ما يكتبه. هذه بالفعل لحظتي، ليست فرصة تغيير، إنها موعد تنفيذ. منذ أسبوعين فقط ، لم أكن أتصور أن شمس الحياة قد بدأت تستدير، وأن ليها قادم ، بكل ما فيه من وحشة وخوف وضياح.

مساعِدَتُهُ الشَّابَّةُ الدكتورَة “ريماس” تقف من وراءه ، في بقعة مظلمة بين ضوئين ، ضوء مصباح المكتب وضوء لوحة الأشعة ، عاقدةٌ ساعديها ومنكسةٌ رأسها، فيما دمعة تتلألأ من خلف عدسات نظارتها، لماذا لا تتعامل مع الأمر بذات البساطة والجفاء؟ أظنها لازالت تملك بعضاً من الإنسانية التي تموت فينا مع الاعتیاد، كل ما نعتاده لا نراه ، يمحوه الزمن ببطءٍ ماكر وأصابعٍ خبيرة.

آه ... الزمن .

- في حالات كثير التزمت بالعلاج واتحسنت الحمد لله.

تُوَاسِنِي “ريماس” في نبرة حنونة ، تمدُّ لي بها أوتاراً من الأمل ، لكنني لا أرى سوى فتائل سابحة في الوهم، التعلق بها لا يمنحني إلا مزيداً من السقوط ، لا شيء يمكن أن يفيد الآن، ولا شيء يُرَجَى ، القدر أصدر حكمه وعلَّقني على مشانق الانتظار.

وريقات رزنامة التقويم المُعلَّقة خلف ظهرها تَفْرُّ عَائِدَةً يِ

إلى اليوم الذي قرأ فيه أبي قائمة درجاتي في الشهادة الابتدائية، رُدُّه كان قاسياً كالمعتاد ، صفعه على وجهي المكتنظ زلزلت جسدي الكروي السمين.

- هتعيش وتموت بليد وفاشل.

أهرب بخطوات ثقيلة وجسد يتزهز لأرتمي في حضن أمي ، تستقبلني بذراعين متلهفين للقبيا ، وقلب يترنم أنشودة الحنان ، تتلمَّس موضع أصابع أبي على خدي وترتب على ظهري ، تربيتها تمنحني الأمان المنشود.

- بلاش تبقى قاسي عليه كده يا مصطفى ده ابننا الوحيد.

- ده غبي.

يشتمني وهو يُطْفِئُ سيجارته في المزمدة ، بينما أطفئ أنا حُرقتي في حضن أمي ، الانطفاء في حضنها لم يكن مجرداً بلسم يبرد لوعة إحساسي، بل باباً أنفُذ منه إلى مروج حُضْر، أجري فيها خلف ذيل مُهر جميل.

تفلت مني دمعة تظنها “ريماس” طليعة لأتواء الوداع فتحول وجهها بعيداً، لا تعرف أنها مجرد دمعة قديمة، أختزنها منذ زمن بعيد، دموع الرحيل لم يحن موعدها بعد يا دكتورَة، فلازال أمامي ستون فرصة لأبكي كما يجب أن يكون.

الفجوات الداكنة في أشعة مُخي المعروضة على اللوحة  
المضيئة تضعني أمام فوهة قبر أمي ، أشاهدهم وهم يلقون  
لغافتها البيضاء إلى حلق الظلام، وأشهد أبي يبكي بينهم  
ويصرخ:

- أنا هدفها هنا، عايزها تفضل قريبة مني.

لا أفهم ما يحدث! لكنني أتصورها شرنقة ستخرج منها أمي  
فراشة بيضاء لتلغمني بحريز حنانها ، أداوم على الجلوس إلى  
جوار شاهدها، أراقب الشمس وهي تهبط من السماء، فتدور  
حولها أوراق أقحوانتي التي نبتت هناك، ربما تأتيها فراشة  
أمي لترشف منها رحيق الحياة، لكن الأقحوانة لم تكن تمنح  
شمسها إلا للدبابير، الدبور الأحمر الكبير كان لا يتركها إلا بعد  
أن يمتص النهار.

الليل في حياتي لا يلد إلا ليلاً، وفجوات مخي تزداد دكائنة،  
الدكتور "عبد اللطيف" يحوم بالقلم المضيء حول حدود  
الورم الواضح بالأشعة، يرسم لرماس دوامة كبيرة ومخيفة.  
ضياح أغور في ظلمته لسنوات ، أتلقى خلالها مزيداً من  
الفشل، مزيداً من الصفعات ، لكن لا حضن هناك ، فقط  
علامات لأصابع خمسة ، تُحصي لي عدد مرات فشلي الكبير،  
فشلي في أن أصبح فارساً أو سباحاً أو رامياً، فشلي في دخول

الجامعة، وفشلي في أن أنال قلب أي فتاة، ربما لم أعد صبيّاً  
بديناً كما كنت، بل شاباً سوياً الهيئة منسجم الملامح، لكنني  
بقيت ممتلئاً ومملاً، والفتيات قطعاً لا يُحببن أمثالي ، لم يشفع  
لي شعري الأشقر ولا عيناي الخضراوان في أن ألقت نظر أي  
منهن، نظراتي الحادة والنمش المنتشر في جلدي جعلاني  
دوماً ذلك الفتى الغريب.

لا تتوقف غرابتي عند ملامحي ، بل تتعدها لشخصيتي،  
أتحول إلى إنسان صوت منعزل ، يستطيب الانخراط في عالم  
السكون ، خوفاً من أي شيء وكل شيء ، كما يظل الوقت  
كالنوم ، لا قيمة له في حياتي ، فلا معنى للأشياء التي تحتضر،  
والوقت يموت كل لحظة.

سيف العقرب الأسود يقطع رأس الساعة الرابعة ، قبل أن  
يواصل رحلته في حصد مراسي الميناء الأبيض، تغيب ملامحه  
المستديرة بعيداً، فتتقدم قَسَمَات الدكتور "عبد اللطيف"  
والدكتورة "ريماس" ، لكنها سرعان ما تذوب في قطرتين  
مُعلقتين على حافة أهدابي .

يبدو أنني أبكي رغماً عني .

- الدوا ده هيخفف وجع الصداع لحد ما نبدأ جلسات  
العلاج.

يقولها الدكتور "عبد اللطيف" ماداً يده لي بوصفة بها عقاراً ماً، أكاد لا أراه من خلف دموعي، لا أرى سوى بقعة حبر سائلة، تختم ربما شهادة وفاقي، أي عقار هذا يا دكتور؟! هل عقارك سيمنحني الحياة؟

ألتقطها فأدسها في جيبِي، وأودعهما بصوت مخنوق، أخرج إلى نهار رماديّ كئيب، سماؤه متورمة بالغيوم، وشوارعه مغسولة بالمطر، سيارتي الهوندا الحمراء المصفوفة أمام العيادة تتباين في المشهد مثل بقعة دم قانية على جسد ميت، أدخلها لأمسح دموعي قبل أن تستحيل سيلاً هادراً أعجز عن إيقافه.

آه، الصداق يزداد جشعاً.

أدير مفتاح السيارة فيهدر المُحرك ويتوهج وضع الاستعداد لتشغيل السي دي، موسيقى Danse Macabre تندفع كراقصة باليه متحمسة للعرض، أثيرها ينساب إلى وجداني ذائباً مع صوت المطر في مزيج مأساويّ حزين، أحرك ذراع المساحات فتتمايل كأنها تشاركنا كورال الموت، لكن المطر لا يُحس، المطر بكاء والبكاء لا يموت، تتشربهُ أرواحنا مثلما تتشرب الذكريات الأليمة.

لماذا أبكي الآن؟ أليس هذا هو الموت الذي طالما تمهّيته؟!

الثوب الأسود الذي أنتظره لأنه سيُداري فشلي ويستريح عيوي؟! ما الذي غيّر قناعاتي عنه إذن؟! ألم تزل الحياة كما هي، بشعة للغاية، قاسية للغاية، وحقيرة أيضاً للغاية؟! أم هو إحساسي بالقهر لأنني أغادرها رغماً عني؟!

تتعاضم إحدى القطرات التي تضرب زجاج السيارة لتحتويني وأنا أصارع الموت تحت الماء، دفعني أبي على نحو مفاجئ لأسقط بحوض السباحة، أحسست أنني غارق لا محالة، لكن الماء حملني إلى السطح سريعاً لأشهب حلاوة الروح، تتجلى لي الأصوات المكتومة بالأعلى، فيُوجعني أن أسمع ضحكات أقراني الساخرة مني تتعالى، بينما أبي يقول وهو ينتشلني:

- لازم تتجرأ والمواجهة هي اللي هتعلمك.

تُجفّف أُمي صدري المكتظ وتضميني إليها، أنزوي لأفرغ الماء الذي ابتلعتُه من معدتي، وأفرغ معه الكثير من بقايا حبي لأبي.

لماذا يكرهني ويحتقرفني؟

أحضان من زجاج تفرض عزلتي على ضجيج الشارع، وخيوط المطر المنزلة على زجاج السيارة الأمامي تشدُّ من نفسها أوتاراً على الكمان النائمة فوق كتفي، الكمان دائماً

تكنس المطر يمينا ويساراً كأنها تمسح دموعي، والمشهد يتجلى  
كاملاً في لحظة كاشفة، أفاجأ فيها باندفاعي الحادّ نحو الصّدام  
الخلفيّ لشاحنة كبيرة، المسافة بيني وبينها أبعد من دموعي،  
لكنها أقصر من عمري، لافتتها السوداء تعترض بصري :

”أحيني النهار ده وموتني بكرة“!

يلطمني المعنى للحظة قبل أن أدعس المكابح في ذعر،  
تنزلق السيارة على الأرض المعجونة دون أي سيطرة مني ،  
أصطمم وأتزلزل، تقتلعني الصدمة لأخترق الزجاج الأمامي،  
عشرات من القطع الزجاجية ترشق جسدي، يصعقني ألم  
حارق ، وأغرق في الأسود العميق.

موسيقى Danse Macabre تعزف في الفراغ .

قطع من النور تتممّد وتتقلص، وجوه باهتة جزعة تطل  
من معاطف بيضاء مخضبة، وجسدي مجرور فوق شيء ما،  
وهج مبهر يغمري، صوت نبضي مكتوم كمشخة تختنق ،  
متسارع كأنفاس تلهث، ظلام سحيق، روائح لاذعة، صحوات،  
غفوات ، رنين ، صداد ، صمت ، صفير ، موت.

أصوات غامضة تتجلى.

- الحالة مستقرة.

تنام عليها ، منذ لقائي الأول بها في معهد الموسيقى العربية  
وهي جزء مني ، أعشقها لأنها تحترم وحدتي وتفهم حزني ،  
كما أنّ رنيص صوتها يذكرني بنبض أمي ، أحياناً أمرّ القوس  
على الأوتار فتفتتح أمامي نافذة مبهرة ، أرى أمي من خلفها  
رافلة في ثوب منير تمد لي ذراعها، بينما شعرها الناعم يتطاير،  
وشفتاها اللامعتان تبتسمان:

- وحشتني يا نبيل.

يحنو صوتها الناعم على فؤادي فأردُّ بلهفة:

- انت أكثر يا أمي.

- نفسي أشوفك.

- انا هنا قدامك.

أواصل العزف بحماس آملاً أن تقترب أكثر، لكن الموسيقي  
تستحيل صاخبةً حينما تعاركها موجات سُبَاب يوجهها أبي إلى  
شاطئ كرامتي:

- غبي ومتخلف.

تصرخ الأوتار تحت نَصْل القوس حتى تنقطع وتسيل تحت  
أجفاني ، أعصرها فتفيض من مقلتي إلى خدي ، المسّاحات

”ريماس“ تداري وجهها بكفها ، بينما يجادلني ”عبد اللطيف“:  
- مفيش حد بي موت قبل ما يستوفي عمره ورزقه يا بني،  
لسه لك في الحياة نصيب.

أ تذكر كلمة الالفة ،

”احييني النهارده وموتني بكرة“

فأسكت ، أسكت فوراً، أسكت مماماً.

\*\*\*

أفتح عينيَّ على مهل لأستبين صاحب الصوت ، بضع ثوانٍ  
تتمطط فيها الملامح المتماهية بين الأبيض والرمادي قبل أن  
تنفصل ، أبصرُ بعدها قدمي ملفوفة في جيرة معلقة ، وأجد  
الدكتور ”عبد اللطيف“ والدكتورة ”ريماس“ ومعهم طبيب  
آخر، يتناقشون عند الطرف المقابل لسريري ، تتجلى مع  
استفاقتي شراسة الألم ، فأ تذكر الحادث ، وأ تذكر المرض والحزن  
والموت، عاصفة حنق تهب على حبال الصوتية ، فتحرك لساني  
الثقيل لينطلق بسؤال ساخط : فاضل لي قد ايه؟

- حمد لله على سلامتكم.

تهنئني ”ريماس“ محاولة احتواء حنقي ، فلا أكثرث لها،  
أنفض رأسي يميناً ويساراً مكرراً سؤالي: فاضل لي قد ايه؟

وكعادته لا يتردد الدكتور ”عبد اللطيف“ في إحسان ذبحي:

- فات شهر.

يهبط قلبي في صدري ، ويتصاعد الطنين والصداع والوجع ،  
آه .. الموت يلعب معي لعبته الكبيرة ، منذ غفوة كان نصيب  
من الحياة ستين يوماً ، الآن لم يبقَ لي منها إلا النصف.

- أنقذتوني ليه؟

أصرخ بكل ما تستطيع حنجرتي المخدرة من قوة ، فألمح



يستقبلني بعناق دافئ ، ورائحة دخان لا تغادر سترته الرسمية أبداً ، يُعدل من شعره الأسود الكثيف ، ويحك لي ياقة البالطو، قبل أن يتركني ليتعاون مع موظفي المستشفى على إيداع حقابي إلى داخل السيارة. فرحته الصادقة ، تؤكد لي أن الدكتور ”عبد اللطيف“ أوفى بوعده ولم يخبره بخطورة موقفي.

- أنا مقولتش لحد على طبيعة المرض اللي عندك يا نبيل، وكمان هواقلك على الخروج زي ما طلبت، لكن بشرط، لازم تكمل كورس العلاج بالإشعاع اللي بدأناه معاك في فترة الغيوبة.

- علاج! ليه؟

- بص يا نبيل السرطان زي الشيطان، لو حس منك ضعف أو استسلام، بيسيطر عليك، لكن لو لقي عندك قوة إيمان وعزيمة، يبضعف ووممكن يموت.

- الضعف قدر يا دكتور.

- الضعف اختيار يا نبيل.

يعود صلاح ليهننتي:

- حمد لله على سلامتكم يا نبيل.

أفضل ما في هذا الحادث أنني قضيتُ أغلب أوقات الألم في غيبوبة تامة ، أخبرتني إدارة المستشفى - التي نُقلت إليها - أنهم اتصلوا بالدكتور ”عبد اللطيف“ والدكتورة ”ريماس“ ، بعدما عثروا على الوصفة الطبية في درج سيارتي المنسحقة، وأن الأخرين أبلغوا ”صلاح“ مدير شركاتنا بما حدث، على اعتبار أن الدكتور ”عبد اللطيف“ يعرفه ، وأنهما كانا يتابعان حالتي يوميًا وبشكل مكثف ، لازلت لا أفهم سرّ اهتمامهما بي ، الدكتور ”عبد اللطيف“ عمليّ للغاية بحكم عمره وخبرته ، و”ريماس“ لم تطع على حالتي إلا قبل أسبوع واحد ، ما ينفي أي سبب للتعاطف! ثم ما الفائدة من الاعتناء بإنسان ميت!؟

بجيرة لا تُظهر سوى أصابع قدمي اليسرى وعكاز أعتمد عليه أقوم من على كرسي العجل لأدلف إلى سيارة صديقي ”صلاح“ ، زميل دراستي القديم ومدير شركاتنا الحالي ، هو الوحيد الذي استمرت صداقتي به من بين كل من عرفتهم، كان دائماً ما يتصدى لأي محاولة لإهانة وزني وبلادتي أمام زملائنا، وطالما دخل في مشاكل مع الجميع بسببي ، لا أدري لماذا كان يفعل ذلك؟ ربما هو ثمرة دعاء أمي لي :

- ربنا يرزقك حب الناس يا نبيل.

لا أغادر غرفتي إلا نادراً، أنا م أغلب الوقت وحينما أستيقظ أشغل نفسي في أي شيء تافه ، أتأمل الجدران ، السقف ، أداعب شاشة هاتفني ، المهتم أن أقتل الوقت ، وعندما أشعر بالجوع أنزل إلى المطبخ لألتقط أي ثمرة فاكهة فأكلها وأصعد، يمر شهر وأنا على تلك الحال إلى أن يجيء اليوم الذي أكون فيه في المطبخ ، أقشّر ثمرة برتقال وأشطرها إلى خمس قطع، بعدد مرات خيباتي ، وإذ بفكرة مفاجئة تراودني وتسيطر على تفكيري ، ربما كانت بداخلي من قبل ، وربما أوحّت لي بها لمعة السكين المختنق في قبضتي ، لا أدري ، الأكيد أنني لا أقاومها ، وأستجيب لها في لحظة غبية كافرة ، أقطع فيها شرياني لينفتق الجلد ويتدفق الدم ، أنتفض وأرتعش ، تخونني قلمي فأسقط على بلاط المطبخ مخضباً كل شيء من حولي ، تتخالط أمامي الموجودات وتتأرجح كأنّ شبكيتي تهتزّ، ثم تنطفئ الصورة وكأنني أفقد بصري ، لا ألمح بعدها إلا أقداماً تتجمّع من حولي، يليها ظلُّ أبي وهو يجري مع الأطباء إلى جوار "الترولي" الذي يحملني بين أروقة المستشفى ، فيما رأسه يميل نحوي وصوته يبيكي : "ليه تعمل في نفسك كده بيني ليه توجع قلبي عليك".

هكذا كانت العلاقة بيننا ، لحظات الاقتراب كانت دائماً لسبب طارئ، كمرض يصيبني أو مشكلة أتعرّض لها ، بشرط أن تكون المشكلة قدرية وليست خطأ يستوجب التقرّيع أو

لكنني لا أرد ، لا أجد لتهنئته أي معنى، أي سلامة يقصد؟ أنا على قيد الموت. أتذكر، وهو يُعدّل لي موضع الكرسي الأمامي لأمد قدمي ، تهنئة أبي لي يوم نتيجة الثانوية العامة.

- 70%، يدخلوك إيه دول؟

يقولها مسدداً لوجهي صفة عينة تزلزل كياني وتشعل جنوني ، لاسيما أنها على مرأى ومسمع من الأقارب والأصدقاء وحتى الخدم ، أنصب وجهي في وجهه زاماً شفتي من الغضب، بداخلي عاصفة انتقام شرسة ، تحرضني على أن أرد الصفة صفتين ، لكنها سرعان ما تخمد حينما يواصل إهانتي:

- انت شوهت اسمي وسمعتي وحطمت الاسم اللي انا تعبت أبنيه طول عمري وبدل ما تكون امتداد ليا ولنجاحي في الحياة، بقيت عائلة عليا وعار بهرب منه.

لا أرد ، لم يكن في مكاني أن أفعل ، قاس جداً أن يهينك من كنت تنتظر منه أن يهينك ، أترك أقاربنا يلومونه وأنكس رأسي وأصعد غرفتي فأنزوي وأبكي، أبكي كثيراً، أبكي حتى يضعف نظري.

يقاطعني بعدها لفترة ليست بالقصيرة نعاني فيها الخرس التام ، تصيبني حالة قائمة من الاكتئاب والإحباط ، أترك لحيتي الحمراء تنمو، وشعري الأشقر يشعث ، وأقضي الأيام

- وحشتني قوي يا نبيل، لما الدكتور عبد اللطيف اتصل بيا  
كنت هتجنن، استغربت إنك تعمل حادثه زي دي، انا طول  
عمري بقول عليك هادي في سواقتك.

- وانت كمان يا صلاح، تقريبا سرحت وأنا سابق.

- المهم انك بقيت كويس الحمد لله، انا قلت للناس كلها  
انك رحى شرم وانك قافل تليفونك علشان محتاج تختلي  
بنفسك شوية، مجبتش سرية لحد غير من يومين بس، مقدرتش  
أقاوم زن ريدا زي ما انت فاهم.

- أنا كنت هطلب منك كده فعلا.

أقولها بينما أمنحه نظرة حسرة، "صلاح" رجل تمثيئ في  
فترة من حياتي أن أكونه، مستقر نفسياً، لا أحد يصنع الطقس  
بداخله، كما أنه على مستوى العمل يجيد التعبير عن نفسه  
وينفذ إلى هدفه دائماً بأقصر الطرق الممكنة، شخصيته كانت  
تعجب أبي، كان يتمنى أن أكون مثله، صارحني بذلك ذات  
مرة، وهما يناقشان تقرير المبيعات:

- أنا عارف انت مطلعتش زي صاحبك ليه

يبتلعنا الزحام والشوارع والناس، نخوض رحلة تيه نوائم  
بها الطريق الملتوي صوب المنزل، أعمدة الإنارة تناولنا إلى  
بعضها البعض، وتُخمد في كل مسافة بينها مزيداً من ضوء

العقاب، كأن الحنان في قلبه لا يُستخرج إلا بطعنة تصيبني أو  
حفرة أتعثر بها، لا أذكر أنني رأيت رجلاً أفسى منه في لحظات  
احتياجي للحنان، ولا أبن منه وقت الأزمات والمشاكل، بمجرد  
ما يصيبني سوء تلبن ملامحه العُوسة وينخفق صوته الصارخ،  
فتستحيل برودته حرارة لافحة من الإحساس، ولكنه أبداً لا  
يكون دفئاً، لم يفهم أبي معنى الدفء، كان إما برداً أو جحيماً،  
ولم يجرب معي معنى السلام، فهو في حالة حرب دائمة، اعتاد  
أن يخرج منها منتصراً أتصور أن المادة التي صنع منها قلبه  
تشبه هذه الجبيرة التي تلف قدمي، فقدّر ما تكون لئنة في  
أصلها تكون متحجرة حين تقسو، تظن أن في قسوتها علاجاً  
لكل شيء، وأن ضممتها كما تصلح لإصلاح الكسر تصلح أيضاً  
لمنح الحب، لذلك أعرف جيداً أن حبه لي كان ضاراً، محاولاته  
لتغييرني لم تكن سوى رفضٍ للهزيمة من رجل اعتاد النجاح،  
أتذكر أن إيقاع دقات قلبه لم يكن يعزف ذات النغمة التي  
كانت تعزفها مُهجة أمي، ربما هو كان يحافظ على امتداده  
ليس إلا، أتهمك وكأنني أتشفى منه، هذه العائلة لن يُعد لها  
امتداداً يا أبي، سنتطفئ في ذات المُرمدة السوداء التي انطفأت  
فيها جذوة حياتك، وحياة أمي من قبلك.

النهار "بورترية" مظلم أبده فتان يائس، والشمس ليست  
هناك، لا يوجد إلا ذكرى حزينه لبقايا مرورها، و"صلاح"  
يكلمني:

المغيب ، والسيارات تندفع باستهتار نحو الفجوة السوداء التي بدأت تتكوّر في السماء البعيدة ، صخب أبواقها يدفعني أن أسأل:

- هو فيه ايه يا صلاح، حاسس ان الشوارع زحمة قوي النهار ده.

ينفض سيجارته خارج زجاج السيارة ، ويجيبني من دون أن ينظر إليّ :

- الليلة ليلة راس السنة يا نبيل، كل سنة وانت طيب.

أتأمّل مزيج الأضواء الملوّنة من حولي، وأفكّر في كل هؤلاء الذين مررنا بهم، وماذا تعني الحياة بالنسبة لهم، في ظل نهاية يقف عندها الموت ملوّحاً براياته الداكنة! لماذا يتسابقون على مقاعد رحلة تبغي الوصول إلى العراء؟

أنوار الشوارع المنعكسة داخل حدقتي تُكوّن ثرّاً كبيراً ، أقف من تحتها في بهو الفيلا، أكلم أبي:

- انا عايز أسجل اسمي في معهد الموسيقى العربية.

- موسيقى عربية! يا نهار اسود، انت عايز تموتني وتقهرني؟

- انا حاسس نفسي بحب الكمان، أول مشوفتها حسيت انها قريبة مني.

يُشير لي بشماله :

- زي ما كنت حاسس ان الفرس المعيوب قريب منك؟

أتجاوز تلميحه المرُكّب المهين وأعارضه :

- انا مقدرتش أكون فارس بس ممكن أكون عازف.

- عازف ايه وزفت ايه، بدل ما تقولي اسافر بره ادرس

الطب البيطري، وارجع اشتغل معاك في الشركة ولا المرابط ،

عايز تشتغل رقاد في الكباريات؟

- العزف فن راقٍ، وأنا حاسس إني ممكن أكون عازف

ناجح، وليا اسم.

- اللي زيك عمره ما ينجح في حاجه، انت عمرك ما هيكون

لك بصمة في الحياة، هتعيش وتموت نكرة مفيش حد هيحس

بيك، عارف ليه؟ لان الحياة عايزه اللي يجتهد ويتعب وانت لا

بتتعب ولا عايز تتعب.

يأساً مني يدير وجهه مُشيحاً بذراعه ، ويتركني أفعل ما

أريد ، لا يوافق ولا يرفض ، لكنّ رده - رغم ذلك - يأتي شديداً

القسوة ، لا يكتفي بسحب سيارتي وبطاقة ائتماني وكل ما يعبر

عن شخصيتي ، بل يقرر أن يتزوج ، ومن أول سيدة يجدها

مناسبة ، الدكتوراة "نسرين" زميلته بهيئة التدريس، لم يفعلها

عامرة تتأجج بداخلي بأن أعاقبه وأردّ له كل صفعته دفعة واحدة، رغبة عمياء لا أجد لها أسوأ من أن أدفنه وحيداً وبعيداً عن قبر أمي، لن أقبل أبداً أن يجمعنا الموت كما فعلت الحياة، لن أعيش مأساتي مرتين، أعرف جيداً أنه أوصى بأن أدفنه معها كي يضعني أمام اختبار صعب، فهو يؤقن تماماً أنني لن أرضى بذلك، كم أكرهه، يصر على إخضاعني حتى في لحظة موته!

- طول عمرك عاجز إنك تتخذ أي قرار طول عمرك مهزوز.

أدرك دقة تقييمه لمعدني الرخيص حينما أجد دموعي تنساب رغماً عني، لماذا أبكيه، لماذا لا أسيطر على تلك الدموع اللعينة؟ ألهذه الدرجة أنا متردد وضعيف؟

تشق الدكتورورة "نسرين" الحلقة السوداء وتجلس على ركبته لترتب على كتفي، أرفع رأسي لأستبين شبح ملامحها المتماوج في دموعي، بشرتها البيضاء تلمع كدمعة يبكيها النور وسط حجاب أسود، أشاهدها تومئ لي برأسها أن أفعل، افعل يا نبيل، تعبت بعقلي الذكريات، أتذكر يوم اشتري لي أول كمان، ويوم كسره، يوم أهداني الهوندا الرياضية، ويوم سحبها مني، يوم طلبت منه صوري ولقطاتي مع أمي وكيف رفض وحرمني منها، تتابع المشاهد وتختلط الصور فتمتزج الأصوات، وتترابك الألوان، يهاجمني صداد مرير، يمتد طينينه لوقت ليس بالقصير، ثم يتلعل الأسود كل شيء.

في حياة أمي لأنه كان يحبها بحق، ولا أبالغ إن قلت أنه كان مُتيمماً بها، وهذا منطقي، أمي كانت أنثى رقيقة لدرجة لا توصف، وأبي لم ينسها، هو أراد أن يتجنب طفلاً آخر، يعوض به خيبته في ولده الفاشل الوحيد، إلا أنه ولأول مرة في حياته ذاق طعم الفشل، مات عن الدكتورورة "نسرين" بعد ستة أشهر فقط من زواجهما، وخلال تلك الفترة كانت دائماً ما تشتكي لي أنه يخطئ في اسمها، ويناديها باسم أمي "مَلَك".

تبالغ الدكتورورة "نسرين" أحياناً وتقول أنه مات بسبب إحساسه بالجريمة التي ارتكبها في حق أمي، بالتأكيد لا أقتنع بكلامها، من دون أن يؤثر ذلك على احترامي لها، علاقتي بها ودودة لحدّ كبير، كل ما في الأمر أن وجودها في المنزل كان يؤذي نفسيّاً.

يهرب "صلاح" من الزحام وينفذ إلى الطريق السريع، فأسمع عجلات السيارة تكسح طبقة المطر التي تكسو الأسفلت، منطلقة في براح الحارة اليسرى.

"أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة".  
حيرة كبيرة وأنا أجلس على ركبتي أمام جثمان أبي الملفوف بالكفن الأبيض، دائرة قائمة من أقدام المعزين تطوقني، والأسود يصبغ كل شيء من حولي، يصبغ حتى كفن أبي، رغبة

سكون مشوش ، أعلق معه في لحظة صمت متوترة، كأن  
هواجسي قررت التوقف عن قرع طبولها، انتظاراً لسماع  
قراري النهائي .

- انا بحبه يا ملك، لكن دلحك فيه مش هيعمل منه راجل  
يقدر يعتمد على نفسه، واحنا مش دايمن له.

- انت بتطلب منه اكر من قدراته يا مصطفى.

- أنا بكره اني اشوفه ضعيف ومستسلم.

- هو مستوى ذكاه كده، الحكاية متجيش بالعافية.

- كل انسان ممكن يبقى متميز بالاجتهاد، ربنا خلق له مخ  
زي ما خلق لغيره، أنا اتولدت فقير وشقيت وتعبت لحد ما  
بقيت أستاذ جامعي وعندي شركة أدوية ومربط خيول أصيلة  
مفيش زيه في مصر، على الأقل هو اتولد مش ناقصه حاجه.

- مفيش حد ينفع يبقى زي حد.

- لكن ينفع حد يكون أحسن من أي حد.

أدفن رأسي في صدري وأقول بصوت متهدج:

- هدفن أبويا مع أمي .

تحضنني الدكتور "نرين" حضناً دافئاً أسمع فيه نبض

أسي، ذات النغمة وذات الإيقاع، أنهل منه حتى تغمرني  
السكينة، ويستقرّ فؤادي المرتجف، فأقوم لأملي بصري منه  
لآخر مرة، يقشعر بدني حينما أراه هامداً وضعيفاً للمرة الأولى  
في عمري، فأرتكب فعلة غبية، تتجاوز كل حماقاتي، أميل  
نحوه وأقبله مُبلاً وجهه بدموعي، ومن وسط ضعفي أهمس  
في أذنه:

- الله يرحمك على قد ما عذبتني.

وبأصابع ترتعش، أعطي النعش بالكسوة الخضراء، فتتطفئ  
كل الأنوار التي سطعت في ذاكرتي عنه، وأغرقي في الأسود من  
جديد.

وحزّة أم تشق قلبي فجأة فتفلت مني أنة بسمعها "صلاح"  
بوضوح، يدير وجهه لي فيما عيناه السوداوان تبرقان بالقلق:

- مالك يا نبيل في حاجه بتوجعك؟

- تقريبا المسكنات بدأ مفعولها يروح.

- تحب أقف نشوف الدوا في الشنط؟

- لا مفيش داعي، خليها لما نوصل.

نصل إلى التجمع الخامس ونقترّب من الفيلا، فيطلق  
"صلاح" النفير ليفتح "الحاج كامل" - مدير شئون المنزل

- عايز على الجدار ده ساعة ونتيجة تقويم.

وأشير بذقني للجدار المواجه للخزانة، فيندهش، يبدو ذلك في انضغاط تجاعيد جبهته وانفراج حدقيته، لكنه يستجيب بنشاط اعتدته منه رغم حجمه الضئيل وقصر خطواته، لا أعرف عمره بالتحديد، فمنذ ولدت و"كامل" يعمل لدينا، وبشكل روتيني لا يطرأ عليه أي تغيير، حتى زيه الشتوي لا يجده، البنطلون الزيتوني والبلوفر البندقي، ربما لم ألحظ تقدمه في السن من قبل، لكني اليوم أرى أن الموت قد بدأ يرسم لوحته التجريدية على ملامح الرجل، كرمشة حادة حول العينين، خطوط متشابكة غائرة في الوجه بالإضافة لكتل مبرومة في الرقبة، الموت لا ينسج خطته بنفس النمط إذن، البعض ينقض عليهم، والبعض يستدرجهم.

رنين ال iPhone ينتزعي من أفكاري، والكاشف يتوهج مظهرًا اسم "ريدا" ملحقًا بصورتها الجميلة، وكالعادة، رأسها ملقى إلى الخلف، وضحكتها واسعة عابثة، أترك "صلاح" يتفاهم مع "كامل" حول مواعيد الأدوية وجرعاتها، وأمسح الشاشة لأستقبل صوتها الدافئ:

- نبيل أنا مش مصدقه إني بكلمك، وحشتني قوي الفرقة كلها هتجنن وتشوفك.

والموظف الوحيد الذي أبقيته - مصراعي بوابة الدخول، يدير "صلاح" عجلة القيادة ليشق بشعاعي السيارة ظلام الحديقة، ويدلف ليستقر بها أمام سلم الفيلا الرخامي، يدور حول مقدمتها ليعاونني على النزول بينما يجلب "كامل" الحقائب، نضعد إلى الدور الثاني، حيث غرفتي، أفتحتها ببطء متوجسًا، فينهمر نور الرواق في الغرفة المظلمة صانعاً مثلثاً منيراً، يكشف لي عن صورة بانوراما معلقة بعرض الجدار فوق سريري، لقطة تجمعني وباقي أعضاء فرقة "مقامات"، فرقة العزف التراثية التي أنتمي لها بالإضافة لأربعة من أصدقائي، "حازم" عازف القانون و"جميل" عازف البيانو و"رأفت" عازف العود، وكذلك "ريدا" مطربة الفريق، أوركسترا صغير نقدم من خلاله عروضًا تجمع بين الأصالة والمعاصرة، كنا قد التقطناها من العرض الأخير الذي قدمناه في الأوبرا، صورة ملآنة بالحياة والبهجة يغلب عليها الأحمر الزاهي والأبيض الساطع المتباين مع لون الجدار الرمادي الداكن.

أضيء الغرفة لندخل أنا و"كامل" و"صلاح" فأقول:

- لو سمحت يا حاج كامل عايز منك طلب.

يضع "كامل" الحقائب أمام خزانة الملابس على يمين الباب ويعتدل ليستفسر: أمر يا نبيل يا بني؟

- انتم كمان هتوحشوني قوي.

- هنوحشك ازاي؟

أمسح دمة فَرْت مني قسراً وأقول:

- اقصد وحشتوني .

- احنا زرنك كثير بس منعرفش إنك هتخرج النهارده .

- أنا كمان مكنتش اعرف.

- مال صوتك؟ انت لسه تعبان؟

- آه شوية.

- معلش الحمد لله انها جت لحد كده، كلنا ممكن نتعرض لحادثة يعني مش نهاية الحياة ومسيرك تفك الجبس وتبقى كويس.

لا أرد فتسترسل في كلامها:

- انا هجمّع الفرقة ونجيلك بكرة من بدري.

- اوك هستناكم.

- ماشي يا قلبي مع السلامة.

تُهي المكاملة فأكشط دموعي بأناملي وأتذكر يوم خفق

قلبي لها، وقتها لم أكن أفهم أي شيء عن الحب، مجرد عناق سريع منحنتني إياه يوم توفي أبي، عبث بعقلي وجعلني أتصور أنها تحبني، عطرها أوقد بداخلي ذكرى حاملة لحضن أمي، لم أسمع من قلبها ذات الإيقاع الذي كانت تعزفه نبضات أمي، لكنني أقنعت نفسي بأن الأم غير الحبيبة، إلا أن المسألة انتهت قبل أن تبدأ، فلم أكدُ أصارحها حتى رأيت في اتساع عينيها دهشة استنكار مؤلمة، كأنها تقول لي: أعجبني أنت؟ لست حُلمي ولن تكون، لم تنطقها، لكن نبرتها المرتبكة صرخت بذلك:

- نبيل انت زي أخويا .

لم أدق في حياتي كأساً أشد مرارةً من ذلك الذي دعوتها له على طاولة مصارحتي، أحسستُ بأنني أتضاءل، وأن المسافة التي تفصل بين مقعدينا تتمدد وتتباعد، تسمي أبعد من أن أسمع بقية كلامها، أبعد حتى من أن أراها، وأن صدى تغريد الطيور التي كانت تجتاز السماء راحلة نحو قرص المغيب لا يحتفي بنا كما كنت أظن، بل يُشبعنا إلى وجهتين متعاكستين، ندمتُ حينها على تعرية تلك المساحة المحتجبة من مشاعري، فلم يكن قرارى هادئاً ولا مدروساً، كان ثورياً طائشاً، موثُ أبي جعلني أظن أن كل أبواب السعادة ستنتفح لي على مصراعها، ولمّا لا وقد تحرّرتُ من القيد الذي طالمنا كبُلني به تحت قدميه مثل كلب الصيد؛ لذلك رفُضُ "ريدا" كان بمثابة ارتداد



صادم لحالة النشوة التي خلفها رحيله. مذاق مرير لإخفاق جديد، لكني بالأخير تجاوزت الأمر. دمائه خلقها ساعدتني على ذلك، يكفي أنها لم تخبر أحداً بما جرى ولم تستغل مراهقة عواطفني لصالحها.

إلاً أنني أعود وأحترق بنيران الغيرة، حينما تُصَبُّ نظرات الإعجاب المتبادلة بين "ريدا" و"صلاح" حميم القهر داخل حلقني، علاقة الحب التي تنشأ بينهما تصهر بقايا ما في روحي من إحساس، تمتلئ نفسي بالهزيمة لدرجة أنني أصاب بالمرض وأهرب من حضور حفل خطبتهما، لم يكن باحتمالي رؤية قُبْلَتِهِ وهي تنطبع على خدها، علامة حبِّها له ماهي إلا ندبة ضعف تحفر لنفسها أخدوداً جديداً في شخصيتي.

ألتفت إلى "صلاح" الواقف من ورائي وفي ملامحه تتكئلت علامات التعجب، أوجّه له سؤالاً مباشراً لكن بصوت خفيض يكتم أكثر مما يبوح:

- هو رصيدنا في البنك كبير يا صلاح؟

يتفاجأ بالسؤال، لكنه يرد بشكل بديهي:

- الخير كثير الحمد لله؟

- طيب عايز كشف حساب عن السيولة الموجودة وياريت يجيلي بأقصى سرعة، ابعتهولي حتى على الإيميل.

- حاضر، بس فهمني انت ناوي على إيه؟

- معلش ريحني واعمل اللي اقولك عليه من غير متسأل.

يسكت قليلاً كأنه يحاول أن يفهم، ثم يعود ليسأل:

- نبيل انت فيك حاجة؟ زعلان من حاجة؟ حاجة مضايقاك؟

- ليه بتقول كده؟

- انت مش شايف نفسك! دموعك موقفتش من وقت ما

خرجت من المستشفى، وعينيك حمرا زي الدم.

- لا بس يمكن ظروف المرض اللي مريت بيها خلتني اشوف

حاجات مكنتش شايفها الأول.

يتردد قليلاً ثم يأتيني صوته مُحملاً فوق تنهيد طويل:

- يعني انت كويس؟

- انا هابقي كويس لو عملت اللي طلبته منك.

- زي ما تشوف.

- شكرا يا صلاح على تعبك معايا.

- عيب يا نبيل متقولش كده، احنا اخوات، بس لو حسيت

بأي تعب اتصل بيا فوراً وفي أي وقت، أنا كلمت المستشفى

يبعتوك ممرضة تيجي تتابعك الفترة الجاية.

- لا لا ملهاش لازمة.

- ليه؟

- الحاج كامل كفاية، انت عارف انه مربييني وانا برتاح معاه.

- زي ما تشوف، أنا هسيك علشان عندي شغل كثير في الشركة بس أي حاجة تحتاجني فيها اتصل فوراً.

يمنحني عناقاً قوياً ويغادر، يتركني لأختلي بمعشوقتي الجميلة، الكمان.

لازالتُ كما تركتها، مكتنة على الجدار فوق خزانة الكتب، كأنها تنتظر قدمي، يا الله، كم أوحشتني، لا أتصور أنني لم ألسها كل تلك الفترة وأنا الذي لم أفارقها ولا مرة منذ عرفتها. أحمليها وأضمها، أمنحها قبلة اشتياق كبير، أطفئ بها حرقة ابتعادي عنها.

لا أحد يفهم أبداً كيف هي علاقتنا يا صغيرتي، لا أحد يتصور قصة عشقنا، لا أحد يعرف أنني بالنسبة لك هركليز الضخم وأنت أميرتي الفاتنة التي تعشق أن تتسلق صدري وتمدد جسدها الساحر بين ذراعي وكتفي، تتدلل حتى أعانقها

بدلني فتفرد شعرها الذهبي الطويل من فوق وجهها، وندعوني لأغزله بأناملي كي تحاديني، كم يلامس صوتك الحزين كل أوتار الشجن في دواخلي، كم يبثني من الحنان والمواساة، راقصتك كل رقصات الحياة بما فيها من ألم وأمل، أهه تجمعنا يوماً رقصة من رقصات الموت؟!

- فاشل عمرك ما هتسبب ذكرى في الحياة،

- فات شهر.

أشعر بانقباض مفاجئ في قلبي، فأضمها كأني أحتمي بها، أو كأني أحميها، أريح جسدي المكدود فوق السرير، وأغمض عيني.

ظلام في ظلام، سواد ليس فيه إلا بقعة ضوء، ومسرح أوقف عليه وحيداً ومستوحشاً، الكمان نائمة على كتفي، وشيء غريب يحدث لي، القوس يتمايل فوق الأوتار، لكن دون أن أحرکه، دون أن أفعل شيئاً، أذرعني منسدلة إلى الأسفل وموسيقى "رقصة الموت" تعزف نفسها بانفعال جارف، إيقاعها الملحمي يتصاعد وأنا هائم معها في حالة وسط بين الوعي واللاوعي، لكن ماذا تفعل بقعة الضوء هنا؟ أنا لا أعزف لأحد، لا أطبقها ولا أريددها، أريد فقط أن أغرق في الظلام، أنا والكمان والموسيقى والألم.

نبيل ... أحدهم يناديني، لكن العزف يستمر، نبيل ...  
أرجوك أيها القوس استمر، صوت الوتر يستحيل غليظاً  
ساخطاً، صوت .. ري.. وبقعة الضوء تخفت، نبيل ... نبيل ،  
أنامل تُرَبَّت فوق كتفي، صوت هامس يتنامى، نبيل ... تتلاشى  
البقعة ويتوهج المسرح ... أفيق.

أبصر رؤوسهم تظللني، "ريدا" ومَنْ حولها "حازم"  
و"جميل" و"رأفت":

- حمد لله على سلامتكم.

كنتُ نائمًا.

أعدتد فتقابلني على الجدار ساعة حائط ، شبيهة بتلك  
التي رأيتهما عند الدكتور "عبد اللطيف"، لكن هذه ميناؤها  
أسود، يبدو أن "كامل" أحضرها أثناء غفوتي، لكن أليس غريباً  
أن تحتلّ ذات المكان الذي كانت تجلس فيه الكمان منذ قليل؟  
أندھش حينما أجدھا تشير إلى العاشرة صباحاً، أطلتُ  
النوم أمس بصورة غير معتادة.

- سرحان في ايه يا فنان؟

يسألني حازم فأعاقه: وحشتوني ..

انت كمان وحشتنا جدا. يعانقونني جماعة وهم يقولونها

في صوت واحد بينما يضيف "رأفت": هات رجلك خلينا  
نكتب لك ذكريات على الجبس، الدكاترة منعونا واحنا بنزورك  
نشخبط.

ويُخرج قلمًا، ويبدأ في كتابة كلمات شديدة الإيلام.

"حادثة تقوت ولا حد يموت" ..

يضحكون ، بينما أزوغ أنا مع المعنى، "فعلا ولا حد يموت"

تربت "ريدا" على كتفي وقميل بوجهها الجميل نحوي ...

- انت كويس؟

أشعر بالأمان حينما يحجب شعرها المتهدل نور النهار،  
المتسلل من النافذة التي يفتحها "حازم"، وأقول بارتياح:

- آه

- حاساك متغير، كأن في حاجة مزعك؟ حتى صلاح كلمني  
وقلاقان عليك.

- لا ألم الكسر بس.

- طيب ايه رأيك الليلة عندنا حفلة في الساقية تحب

تيجي؟

- أوسد جبهتي لكفي كي أهرب من عينها وأقول: خليني

لما أخف أحسن.

- دي حفلة دخلها هيكون دخلها لمستشفى 57357،  
علشان خاطر تعالي معانا.

- واحشني نعمل دويتو اللقا الثاني، بين البيانو والكمان يا  
نبيل.

- وانا كمان يا جميل واحشني قوي.

- طيب هاتي جي؟

فأبتسم وأقول: حاضر هاجي.

تصرخ "ريدا" فرحة ويهللون جميعاً لموافقتي ، نتسامر  
قليلاً ثم يغادرونني لأختلي بالحقيقة.

الموت حقيقة تائهة بين أكاذيب البشر.

أشعرُ بوحشة غريبة، كأن روحي لازالت تتعرفُ إلى  
جسدي، أظن أن العودة من غيابة طويلة تشبه إلى حد كبير  
العودة من الموت.

- آه، صداع رهيب.

أقوم لأدفع باب الخزانة لتبديل ملابسني، ينزلق إلى مجراه  
كاشفاً عن المرأة التي تبيت خلفه ، أستغرب حينما أرى

هينتي الجديدة، رأسي الحليق وجسدي الذي نحل، عيناى  
الجاحظتان والهالة السوداء التي تحيطهما، ملامح تجعل مني  
شبحاً مخيفاً لرجل لا أعرفه، أو ربما هناك من ينظر إلى نفسه  
في المرأة وأنا مجرد انعكاسه، أظن أن هذا يصفني إلى حد  
كبير، أنا أعيش داخل تلك المساحة الفاصلة بين نفسي وأبي، بين  
ما أنا عليه الآن وما كان يريدني أن أكونه، أنا ببساطة صورته  
المشوّهة المنكسرة، حتى أنني أراه الآن من خلف كتفي، يقف  
تحت الساعة يوبخني:

- هتعيش وموت بليد وفاشل.

يقولها بينما يبرم ترس التاريخ البارز على إطارها، يضبطها  
على تاريخ مآ، كأنه يتدخل في تحديد أجلي، أحاول قراءته  
لكن الصداع يهاجمني فجأة، يشوش بصري ويعجزني عن  
استيضاح أيِّ رقم، بالكاد ألمح إصبعه يدير عقرب الساعات،  
فأسمع خمس دقات متتالية، كأنها أجراس كنيسة بعيدة،  
يشدد معها الألم والصداع، يتشوّه المشهد تماماً، أتيه في غيمة  
ضباب كثيفة، لا ينجيني منها إلا أن أهرع إلى الحمام وأضع  
رأسي تحت سيل الماء. تصدمني برودته كأشد ما يكون، حتى  
أن عينيّ تنفتحان على اتساعهما وأشعر أن عروقهما تتصلب،  
لكنني أتحمل وأنتظر حالماً أستفيق تماماً ، فأخرج من الحمام  
وأجفف رأسي بينما بداخلي تتكون أفكار مظلمة، لا يمكن أن

”ورشة خليل نصيف لإصلاح الآلات الموسيقية“ ...

على بُعد متر من هذه اللوحة أوقف سيارتي وأهبط بقدمي المجرّبة في حذر، يلفت منظرها انتباه رواد المقهى المجاور، لدرجة أنّ أحدهم يتوقف فجأة عن رشف كوب الشاي المستقر بين يديه، لكني لا أهتم، أتوكأ عكازي وأتحرك ببطء لأمر من تحت اللوحة إلى دواخل الورشة العتيقة.

كعادته يجلس الأشيب المِعْمَر ”خليل نصيف“ خلف مكتبه، على اليمين من الورشة، ومن فوق رأسه تتدلى ثلاث آلات معلقة على الترتيب، جيتار.. عود.. كمان، مدلياً نظارته إلى أرنبه أنفه، وظهره محنيّ نحو كمان مستقر على ركبتيه، يحاول ”خليل“ شدّ وتر ال ”c“ بعد أن دككه ومرره من فوق المشط، لكنني أرى أصابعه ترتعش بشكل يستحيل معه السيطرة على الوتر، الوتر كالفرس إن شعر بضعف شخصية فارسه جمح وعصى، وما أراه هو أن أصابع ”خليل“ العجوزة تخونه، حتى الإصرار الذي يرتسم على ملامحه وهو يشد الوتر بعزم لا يلبث أن يلين مهزوماً مع ارتخائه بين أصابعه حين يفشل، أتوقع منه أن ييأس سريعاً، لكنه يُخْلِيفُ ظني ويُعَدِّلُ من وضع الكمان، يمسكها بين فخذيه موجّهاً عنقها لأعلى، قبل

أموت قبل أن أهزم أي، حتى لو تطلب الأمر أن أهدم كل ما بناه، لكن كيف؟

أصل إلى فكرة جنوبيّة في غضون دقائق قليلة فأخطف الـ iPhone ومحفظتي والمفاتيح، وأغادر لأستقلّ سيارتي الـ Jeep، متّجهاً صوب شارع محمد علي.

أغرق داخل مقصورة السيّارة، في شجن موسيقى اللقاء الثاني لعمر خيرت، فتبدو مشاهد الحياة حلماً سرياليّاً غريباً.

أتذكر كلمات الشاعر ”سيد حجاب“ القاسية على نفسي :  
”أحلى سنين العمر بينا مُر، يا نعيش هوانا .. هوانا .. حلم ليلة صيف، يا توه خطانا في ليل شتانا المر“،

أردّدها بإحساس رهيف، أرددها حتى أصِلَّ وجهتي.

\*\*\*

- العظیم فرید الاطرش، كنت دائما أظبط له شدة العود،  
ومكنش يظمن لحد غيري، شايف العود المكسور اللي هناك  
.٥٥

ويشير بأصبعه إلى أنتيك معلق وسط مجموعة من القطع  
الموسيقية وصور بالفحم للمطربين، ويُردف: ده عوده اللي  
انكسر في فيلم "عنان".

ينتبه فجأة إلى أنني أستند إلى عكاز من الحديد وحول  
قدمي جيرة، فيزيد من انحناء ظهره، ويشير بذراعه  
يدعوني للجلوس:

- اتفضل اقعد معلش العتب على النظر.

نجلس إلى مقعدين من الأرابيسك بينما أقول:

- انا مش هعطلك، أنا عايز منك طلب وعارف إنك تقدر  
عليه.

- اتفضل يا فنان.

- عايز وتر مبيتقطعش.

يرفع النظارة عن أنفه، ويفرك عينيه قبل أن يعترض:

- مفيش وتر مبيتقطعش، الوتر له عمر، ولازم تيجيله

أن يشرع في لف الوتر على المفتاح، وإدارته بروية ليشتد فوق  
العنق، رغم ذلك لا تسير الأمور معه على نحو طيب، ينقطع  
الوتر فجأة مُصدراً رنة فشل، تضرب معها عضلات وجهه،  
كأن إبرة وخرتها.

يؤسفني أن أراه ضعيفاً هكذا، "خليل" كان أبرع آلاقي في  
مصر، لكن يبدو أن المهارة تنتحر في صاحبها، حينما تستشعر  
نهايته.

أندخل لأُسريّ عنه: مساء الخير يا أستاذ.

مسحني بنظره تفحصية من فوق عدسات نظارته، ثم  
يقوم ليصافحني حينما يستدل على ملامحي:

- نبيل ازيك يا فنان. ويستدرك بضحكة قصيرة مرتبكة:

- معلش بقى انت أن عارف الأوتار الأيام دي كلها صيني  
مبتتحملش.

- ولا يهملك يا ارتست يا كبير.

تتسع ابتسامته مع إطرائي ويقول: بحب اللقب ده قوي،  
عارف مين أول واحد وصفني بيه؟

ورغم أنني أعرف، أتركه يستطرد في حماس:

لحظة ينتهي فيها، واللحظة دي بنعرفها لما الوتر يبدأ ينشد،  
فبنديله الشدة الأخيرة.

تُوجعني كلماته، لكني أتماسك وأقول: أنا عارف إنك تقدر  
تعمله وكمان محتاجه بكرة بالكثير.

يستوقفني مُشيراً بكفّيه، وعائداً برأسه الأصلع للوراء:

- على مهلك عليا يا فنان انا راجل عجوز وصحتي مش زي  
الأول، وتر زي ده حتى لو قدرت أعمله هياخد مني وقت.

- أنا واثق إنك تقدر تنجزه وفي ليلة.

يضحك في جذل وتزوغ عينه الثُبينة بعيداً، كأنه يستحضر  
ذكرى نجاحات قديمة، بينما أمدُّ له يدي بمبلغ من المال:  
اتفضل دول ألفين جنيه.

- لكن ده كثير!

- معلش، علشان تقدر تتحرك بسرعة.

- أنا هعمل كل اللي أقدر عليه.

وألمح لمُعة ثقة تتوهج كشهاب داخل عينيه، فأفهم أنه قد  
عقد العزم على استعادة نجاحه القديم .

أغادره إلى سيارتي فيأتيني اتصال هام، أرددُ مُرحباً بالمتصلة

وأسألها :

- ها طمئيني أيه الأخبار؟

- أنا موافقة.

نتحاور قليلاً ثم أنهي الاتصال وأتجه من فوري إلى بنك  
HSBC ، اتخذت قراراً آخرَ بشأن الثروة التي ورثتها عن أبي  
بعبوبة تامة ، فقط أهملت كل أفعال الخير التي كان يقوم  
بها، فوجدت الحل يتشكل من أمامي واضحاً جلياً، صحيح أنه  
بماله وهذا أكرهه بشدة ، لكنه يبقى خيارى الوحيد.

أكتشف فجأة أنني أقترّب من مكتب موظفة خدمة كبار  
العملاء ، لا أدري متى هبّطُ من السيارة ، ولا متى دخلتُ،  
كنتُ شارداً تماماً.

تصافحني بابتسامة رسمية ، تشترك مع قميصها الأحمر  
المحبوك، وشعرها الكيرل وكذلك تنورتها السوداء القصيرة في  
منحها جمالاً ممزوجاً بالكثير من الوقار، أسند عكازي إلى ظهر  
الكرسي ، وأجلس قبالة مكتبها الأبيض في تأنٍ ، بينما تبسّط  
هي كفّها تدعوني لاتخاذ أي وضع مريح.

- ارتاح يا أفندم.

نرمين كمال، "خدمة تميز"، هكذا يشير اسمها المكتوب

بالأحمر، على الدبوس الأسود، المعلق في جيب قميصها.

- أقدر اخدمك حضرتك ازاي؟

أمر لها بطاقة حسابي قائلاً: عايز أعمل ارتباط مالي من حسابي لحساب مستفيد تاني.

تلتقط البطاقة، وتضعها أمامها على طرف لوحة المفاتيح، ثم تضرب أرقام الحساب، وتنشغل في متابعة ما تعرضه الشاشة اللازوردية.

ملاحمها الجميلة وتعبيراتها المهتمة تذكرني بإصرار "ريدا" وجديتها، حتى أنها تفوح بذات العطر الذي تضعه، والذي كانت أمي تستخدمه من قبلهما، "لانكوم".

تدير وجهها لي بابتسامة واسعة، فأرتبك وأسقط بصري ناحية قديمي ...

- نبيل مصطفى نبيل الليثي، حسابك حضرتك مُفَعَل تقدر تجري أي عمليه انت حاببها، اتفضل.

- ده رقم الحساب التاني.

وأمر لها قصاصة تحمل بيانات المستفيد الآخر، فلتلقطها وتنقلها على لوحة المفاتيح، من دون أن تنظر لها، وأعود

لأتابعها وهي تسمح النتائج بعينها في اهتمام، بينما وهج الشاشة ينعكس على قسَمَاتِها الجميلة، وتعود لتكلمني فور أن تتأكد:

- تمام والحساب ده كمان مفعل كده نقدر ننفذ الارتباط .

وبأسلوب رصين تُخرج لي من أحد أدراج مكتبها استمارة تحمل شعار البنك، وتضع فوقها قلماً أنيقاً، تدعوني لاستخدامه:

-اتفضل حضرتك سجل بيانات المستفيد وبياناتك.

أملأ جميع بياناتها ثم أوقعها وأسحبها بسببتي وإبهامي على سطح المكتب لأقربها منها. تندهش حينما تشاهد خانة مبلغ الارتباط، تسكت لبرهة، كأنها تحاول أن تستوعب الموقف: 20 مليون جنيه؟! تنقر بالماوس مرتين، وترتكز في قراءة ما تعرضه الشاشة، ثم تعود فتقول: ده نص الرصيد تقريباً، حضرتك متأكد من المبلغ المكتوب؟

- أكيد.

- في الحالة دي لازم أخذ موافقة مدير البنك، أنا آسفة المبلغ أكبر من صلاحياتي .

أومئ لها برأسي موافقاً، فتمنحني ابتسامة مضمومة



الشفيتين ، وتتحرك في نشاط لإنجاز كل الموافقات المطلوبة، تستغرق قرابة النصف ساعة قبل أن تعود لي باستمارات الموافقة كي أعتدها ، ومع آخر توقيع أستاذنا: ممكن طلب كمان؟

- في خدمة حضرتك.

أمر لها ثلاثة شيكات ، كنت قد حررتُها سالفاً ، وأستكمل:

- عايز أتأكد من صحة توقيعي على الشيكات دي، مش عايز يكون فيه أي مجال لرفضها في المستقبل.

تدققهم واحداً تلو الآخر، مقارنة بين التوقيع المحرر بالشيك، والآخر المسجل داخل النظام الإلكتروني ، قبل أن تعيدهما لي ، بإيماءة واثقة مؤكدة : التوقيع سليم والشيكات مطبوعة.

- أشكرك جدا.

- تحت أمرك.

أهمُّ بالمغادرة ، لكنها تستوقفني مشيرة بأصبعها: في عندي حاجه في السيستم، المفروض كنت حضرتك تشوفها من فترة.

أسألها مضيقاً عيني : خير؟

- وديعة باسم حضرتك، أودعها لك مصطفى الليثي، يعني والدك، المفروض ان ميعاد فتحها يكون خلال سنة من وفاته ودلوقتي مر تقريبا سنة، تحب حضرتك تشوفها؟

أضطرب وتتدافع دقات قلبي، يتمدد قلبي كأضخم ما يكون ويتقلص كأصغر ما يكون ، كأنني مقبل على أمر خطير، "صلاح" حدثني عن تلك الوديعة كثيراً، طلب مني أن أفتحها أكثر من خمس مرات ، مبرراً أنها آخر وصايا أبي، فلماذا؟ ما المههم بشأنها؟ ما الذي تحمله من أسرار؟ فضولي يدفعني أن أفتحها، لكن هواجسي تمنعني بكل ما فيها من خوف ونكران، بالنهاية أستجيب لنذير الخوف المتصاعد في نفسي، وأسحب عكازي لأعتمد عليه في أن أقوم، أقول لها:

- لا أفضل اشوفها بعدين.

تقوم وتلف حول مكتبها بأقصى سرعة يسمح بها كعب حذاءها ، باسطة يدها لأعتمد عليها ، أتأمل كفها الممدودة لي، تبدو كأنها جسر يقودني إلى روحها، أرفع رأسي لها فتقابل نظراتنا، تربكني عينها السوداوان كأشد ما يكون، فيهما ابتسامة حياء تلخص أجمل ما في الحياة، أتردد في قبول مساعدتها بينما يدها الممدودة تحرجني، بالأخير أستند إلى كفها وأقوم، لكنني بمجرد أن أستقيم أسحب يدي فوراً وأغادر

تفترق دفتا المصعد لتقابلني اللوحة البيضاء التي تحمل اسمه وتخصه، بالدور الأول من عمارة الأطباء العتيقة بشارع الحرية، أتخطى الممر إلى العيادة، وأرتكز على العكاز، فأدفع الباب في هدوء لأدخل.

لزالت العيادة على حالها منذ آخر مرة زرتها فيها، كتب متهالك وموكيت أخضر مترب، ومكاتب معدنية عتيقة طلاؤها مقشر.

يستقبلني مساعده "سميح" بترحاب بشوش، سرعان ما يتلاشى فور أن يلحظ حالتي:

- أهلا وسهلا يا أستاذ نبيل وألف سلامة عليك.

- ازيك يا حاج سميح، كويس إنك لسه فاكربي.

- طبعا فاكرك يا بني أبوك كان عزيز وغالي وانت عزيز وغالي.

أتجاوز إطرائه وأسأل: الدكتور موجود؟

- آه بس في المعمل، تحب تنتظره هنا ولا أس..

في لا مبالاة، يصيبها اندهاش كبير من تصرفي، ألحظه في اتساع عينيها واستدارتها البطيئة، لكنني أفهمه، هي لا تعرف أن دفء لمستها كان بمثابة لسعة تحذرنني أن أتعلق بشيء من تلك الحياة، رأيت الموت لحظتها من خلف زجاج البنك، يتعجلني مشيراً إلى قرص ساعته، كأني سائق تاكسي ملول، لذلك ومجرد أن أغادر البنك وتحتويني سيارتي أعود للتفكير في واقعي المظلم، ألتقط الشيك الأول وأرفعه أمام عيني لأقرأ بياناته، المبلغ: 5 مليون جنيه، اسم المستفيد:

"الدكتور جلال عبد القادر"

طبيب بيطري.

\*\*\*

يعرض أن يصحني إلى الداخل، لكنني أستوقفه بإشارة من كفي الأيمن، فيما أوصل توَكُّؤ عكازي إلى المعمل.

أول ما يلفت نظري حين أدخل لوحة مرسومة بمنظور محذب مُهر رمادي يثف وحيداً ومنبوذاً في زاوية ميدان الرَّمح، ملامسها الأرجوانية المنسحبة على أغلب ضربات الفرشاة تباغت ودائع ذاكرتي، تحقن فجيعتي بدفقة إحياء مركزة، لكنني أتر أيُّ إرهاصات قد تجرني لألمي القديم، أنقل بصري سريعاً إلى الدكتور "جلال"، صديق أبي الصدوق، والذي ظلَّ يساعده في الاعتناء بخيول المرابط حتى وفاته:

- مساء الخير يا دكتور جلال.

يرفع رأسه عن الميكروسكوب ليجدني أقف عند الباب:

- نبيل! ازيك يا بني.

وبرفق يرفع الشريحة ويعيدها إلى حافظتها، قبل أن يدور حول طاولات المعمل البيضاء، المُتخمة بالأنابيب والعبوات الزجاجية ليستقبلني .

ملامح الدكتور "جلال" تشبهني إلى حد كبير، وجهه مكتظ، زواياه حادّة، وشعره أشقرّ ناعم، الفارق الوحيد بيننا تلك

التجاعيد التي خدّدها الزمن حول قسماته.

- من يوم وفاة والدك رحمة الله عليه، متقابلاًناش ..

يصدمه أن يراني أستند إلى عكاز وقدمي مكسورة، أفهم ذلك من تضييقه لحدقتيه العسليتين وسقوط فكه العريض، لكنه لا يطيل حالة الانقباض تلك، ويسألني فوراً: خير إيه اللي «صل لك ألف سلامة عليك؟

- الفرس رجلة انكسرت يا دكتور.

أقولها بنبرة تهكميّة، ويفهم ما أعنيه، فيعترض مشيحاً بذراعه: يا راجل حرام عليك متقولش كده ان شاء الله تبقي كويس، اقعد، اقعد.

يُجلسني على كرسي وثير من الجلد، ثم يجذب آخَرَ لا ظهرَ له ويجلس أمامي:

- انا معرفش والله بالحكاية دي والا كنت زرتك، وانت من يوم وفاة والدك لا زرتني ولا أعرف عنك حاجه.

ينتبه فجأة إلى أن الكسر حاصل لقدمي اليسرى، فيعود إلى حالة الجزع: إيه ده هو الكسر في رجلك الشمال، مش تخلي بالك على نفسك يا ابني.

- أنا عملت حادثة.

- حادثة؟! وازاي محدش يقولي حاجه زي دي؟

- مفيش حد كان عارف.

يسكت قليلاً كأنه يتجاوز إحساس الأسف، ثم يعود فيقول:

- عموماً حمد لله على سلامتكم، الحياة على كده وكده يوم حلو ويوم مر.

- انا مدقتش منها غير المرُّ يا دكتور، لحد مبقتش حتى أعرف أميز طعمه.

يميل بوجهه ليواجهني معارضاً: بيني الحياة لما بتقسي على حد بجد، مبيعرفش حتى يشتكي، روحه بتتخفق لحد ما تموت، وانت دايماً مش شايف نعم ربنا عليك، انت غني وعندك هواية بتحبها وشاب مهذب واخلاقك عالية ودي كلها نعم لازم تحمد ربنا عليها.

- اعمل بكل الحاجات دي ايه دكتور؟

- تعيش حياتك تسعد نفسك وغيرك.

- أنا مليش حد، أنا لو فيه حد في الدنيا دي مستنيني، كنت

هاووم المرض والحزن والفشل، صحيح هي حاجات صعب  
لتساوم لكن احساسى ان بعمل ده علشانته، كان هبخليني  
أهسك بأي فرصة ولو ضعيفة علشان أكون معاه.

- ومين قالك مفيش؟ مش يمكن انت اللي رافض حد يقرب  
منك؟

أهرب من مواجهته إلى نافذة المعمل، أريد أن أصرخ فيه  
بأن كلُّ هذا سراب، أطلق بصري في السماء المفتوحة كي أطفئ  
حمر سخطي في برودة السحب المتكثفة على مرآة السماء،  
أسرح في تشكيلاتها قليلاً، كيف تتعانق ثم تفترق، قبل أن  
أهالك نفسي وأعود لأمد يدي له بالشيك :

- اتفضل.

يتناوله ويقرأه سريعاً فتباعد الدهشة بين قسَمَاتِه :

- ايه كل المبلغ ده؟ وليه؟

- علشان اللي حصل ميتكررش.

- ليه مش قادر تنسى الموضوع ده يا ابني؟

- اللي حصل ميتنسيش يا دكتور.

- طيب انت عايزني أعمل ايه بالفلوس دي كلها؟

- عايزك تشوف حل.

- طيب ليه جيتلي ومرحتش لشركة والدك؟

- مش عايز حد هناك يعرف، ومفيش حد فيهم هيفهم ولا هيهتم ده غير ان عندي ثقة انك الوحيد اللي هيقدر يلاقي الحل.

يطوي الشيك ويحاول أن يعيده إلي:

- مهما وصلنا من علم مش هنقدر نعارض قدر ربنا.

- العلم بيتقدم كل يوم.

- بيني الموت ملوش علاج.

أقبض على يده التي تمسك بالشيك وأنظر في عينيه وأقول:

- لكن المرض له.

يتخلّص من زفرة طويلة ثم يُرَبِّت على قبضتي ويسحب يده قائلاً:

- طيب انا هاخذ الفلوس بس بشرط.

- ايه هو؟

- والدك الله يرحمه أوصاني على سرير موته، إني أتأكد إنك

لمنحت الوديعة اللي سابها لك في البنك، وانا لما سألت صلاح من فترة قالي انك مفتحتهاش.

أستنكر طلبه : يا دكتور انا مش ناقص فلوس ؟

- ومين قال لك إنها فلوس!، مش يمكن حاجة أهم؟

- طيب لو فتحتها تنفذي طلبي؟

- أوعدك.

- أشكرك يا دكتور، حضرتك بجد ريحت قلبي.

أقوم مستنداً إلى عكازي ويعاونني لأقف فأمسك بذراعِهِ وأقول نافذاً ببصري إلى عينيه :

- أوعدني إنك توصل لحل يا دكتور.

يُطبق جفنيه ويفتحهما دليلاً على الموافقة ، فأطمئن وأغادره، لكن دون أن تغادرني صورة الجواد ، أهبط إلى مدخل العمارة تصاحبني دقات عكازي على بلاطها المصقول ، لكن الأرض سرعان ما تلتين من تحت قدمي ، حينما أحس بحفيف

عشب ندي يداعب خطواتي، وأنا أسير في غماره ممسكاً بيد أمي.

- بابا عازبك تبقى فارس يا نبيل، علشان كده طلب مني أجيبك المربط تختار مهر يبقى صاحبك، وتتعلم الفروسية عليه.

أسألها باندهاش طفل برئ، لم يتجاوز العاشرة من عمره:

- اختار أي مهر انا عازبه؟

- أه يا حبيبي، أي مهر قلبك يحبه.

تمتلئ نفسي بالنشوة والفرحة بينما أمشي إلى جوارها، نقطع الممشى الرملي المفضي من الكوخ الخشبي إلى ميدان رمح الخيول. هواء الشتاء المنعش المعبق برائحة العشب يجوب المساحات الخضراء الممتدة فيلاعب شعري ويطير ثوب أمي، تمتلئ نفسي بالأمان مع حفيف ثوبها لجسدي فأتشجع وأطلب: ينفع نعيش هنا على طول يا ماما؟

تضحك أمي ضحكة رائقة، مجيبة: لا طبعاً يا حبيبي، لكن أوعدك نيجي هنا كل أسبوع، بشرط انك تجتهد في دراستك.

نصل إلى الميدان، فأترك يدها وأجري لأنفذ برأسي بين

العواض الخشبية من أجل أن أراقب الخيول، تعجبني كلها، لكن يلفتني ذلك المهر الأصيل الواقف عند الزاوية البعيدة، له في يخطفني من أول نظرة، ربما رأسه الصغير ذو الخطم الأسود والعينان الكحيلتان طويلتا الرموش، وربما شعره الأسود الطويل المتهدل على عنقه المقوس، أو بدنه الرمادي المنقوش ببقع داكنة تنسحب عند خصره... لا أدري! لا أجد سبباً واضحاً يجعلني أحبه بهذه السرعة، غير أنه حينما يبدأ لي التحرك أفهم، المهر يعرج في مشيته بشكل بانس، ساقه الأمامية اليمنى أقصر من أختها، أفهم حينها لماذا هو منبوذ بين القطيع، كلما اقترب من أحد الخيول رفضه، أو دفعه برأسه في بطنه ليبتعد، يؤلمني أن أراه يتعثر ويسقط، لكنني أعود وأنشرح حينما أراه يعتمد على ركبته اليسرى ويقوم.

- ها اخترت أي مهر فيهم يا نبيل؟

أتعلق بالعارضة الغليظة، وأهتف بحماس: اخترت المهر ده يا أمي.

تطوق كتفي بذراعها وتميل لتسألني: أي واحد فيهم يا حبيبي؟

أشير إليه بسبابتي فاردأ ذراعي عن آخره وشاباً على أطراف

قدمي :

- اللي واقف لوحده في الآخر.

وتفهم أمني مَنْ أقصد ، فيبدو على ملامحها التوتر وهي  
تغمغم : قصدك قمر.

أنط على الأرض فرحاً : اسمه قمر؟ الله اسمه جميل قوي

- أنت حبيته؟

- قوي يا ماما.

- ليه؟

- علشان هأعرف أكون فارس عليه.

تنظر إلى شيء ما خلفي وتقول مضطربة: طيب مابلاش  
المهر ده اختار واحد تاني.

- أركل الأرض معانداً : لا أنا اخترت ده.

- بابا عايزك تختار مهر قوي، وقمر ضعيف.

- قمر مش ضعيف، قمر طيب.

تحتضن وجهي بين كفيها وتنظر في عيني هامسة: حبيبي

بكرة لما تكبر هتكون فارس زي بابا و...

تقطع كلامها وتنظر لشيء ما وراء ظهري فألتفت لأجد أبي  
يسألني بينما يصور كل شيء بكاميرا الفيديو، التي لا تفارقه  
الأ نادراً :

- ها اخترت أي مهر؟

\*\*\*

قُبالة صورة أبي أجلس على كنبه صالون دكتورة "نسرين" ،  
ماداً ذراعي لها بالشيك ، تلتقطه وتقرأه فترفع حاجبها الأيسر  
الرفيع كعادتها قبل أن تسألني :

- ايه ده يا نبيل؟

- ده ورث حضرتك يا دكتورة.

تضعه أمامي على الطاولة الزجاجية وتنظر في عيني قائلة:

- انت عايز تقطع علاقتك بيا مش كده؟ بتديلي ورثي  
علشان مبيقاش فيه حابه تربطنا ببعض ؟

- لا مقصدش.

- أو مال إيه ده؟

- من حقا تاخدي ورثك، على الأقل يبقى تعويض بسيط  
عن الأيام الصعبة اللي عشتها مع بابا.

- تنظر إلى صورة أبي المعلقة وتقول:

- مين قال إني عشت مع مصطفى أيام صعبة؟

- مش كنتي بتشتكي منه دايماً؟

تضحك قائلة : هو فيه ست مش بتشتكي من جوزها؟  
الست مع جوزها زي اليوم اللي بتعدي عليها الفصول الأربعة،  
مممكن تزعل منه وتصالحه وتتخانق معاه وتحضنه كل ده في  
يوم واحد. ثم تستدرك :

- قولي يا نبيل، انت عمرك تعرف ان حد بيكره حد يعلق  
صورته؟

أتحاشى النظر لعينيها العسليتين الثابتين وأقول:

- مش عارف.

ترفع رأسها إلى صورة أبي ، فتأملها كأنها تستعيد ذكرياتها  
معه:

- يا نبيل انا عشت مع مصطفى أجمل أيام حياتي، مصطفى  
مكش بس زميلي في هيئة التدريس كان أخويا قبل ما اتجوزه  
وحبيبي بعد ما اتجوزته، طول عمره كان انسان محترم وقوي  
والست تحب الانسان القوي.

- قصدك الناجح؟

- مش شرط يكون الراجل ناجح علشان يعجب الست،  
ده ممكن يكون متشرد وبوهيمي وموت فيه، الست تحب  
الراجل اللي تحس جنبه إنها ضله، يحميها من حر الدنيا لكن



وقت ما يتعب بيحي يرتاح عندها. ومصطفى كان كده.  
تعرف! حتى لما كان بيبتكر مامتك الله يرحمها، كنت بشوفه  
يعيط علشانها، وكنت بغير وبضايق بس غصب عني من  
جوايا كنت بحترمه.

- يبقى عمرك ما عرفتيه كويس

تستدير وتواجهني:

- مفيش حد ممكن يعرف الراجل اكر من مراته، أنا  
عارفه مشكلتك معاه كويس، ومكنتش راضيه عن أسلوبه في  
معاملتك، وحاولت كتير اخليه يغير طريقته وانت عارف انا  
كنت بقف معاك ضده ازاي، خصوصا في حكاية إصراره على  
حرمانك من الصور والفيديوهات اللي كان بيصورها لك مع  
أمك، بس واضح ان ده خلاك تفهم الموقف غلط ، مصطفى  
كان دايمًا متصور ان الضعف اختيار، عمره ما اقتنع بحاجة  
اسمها ضعف ، حتى لما كان بيمرض كان بينزل الشغل وعمره  
ما استسلم ورقد في السرير، علشان كده طبيعي انه لما يشوف  
ابنه الوحيد ضعيف ده يخليه دايمًا مخنوق وعصبي، لكن ده  
مش معناه ان دي طبيعته.

وتستطرد :

- شيل الفلوس دي يا نبيل وعيب قوي لما تيجي تديني همن

السوفي جنبك، أنا دايمًا بعتبرك ابني، رغم إني عارفه انك دايمًا  
بارفض ده، علشان كده سايبك على راحتك ومتحملة انك  
السدي لاني برده محترمه علاقتك بأمك الله يرحمها ولنفس  
السبب محبتش أعيش معاك في الفيلا وجيت هنا شقتي  
في المعادي، ووجعني قوي انك تبقى مريض وعامل حادثة  
في غيبوبة ولما تخرج ماتقوليش. بس على العموم انا مش  
«عاتبك لاني مبحبش العتاب».

- يعني مش هتاخدي الشيك.

تحرك رأسها يمينا ويساراً في رفض عنيد ، فأفهم أنه قرأها  
النهائي، فالتقطه وأغادر.

رغم ذلك ، أعود إلى البنك لأودع لها المبلغ في حسابها.

\*\*\*

للهما بالموت ، تماماً مثلما حدث لي ولأمي حرمتنا الحياة من الأمان فانطفأت أرواحنا.

أفبق من أفكارى مع قفزة فى الهواء تصحبها تصفىقة  
أرح طفولية من "ريدا"، وأبتسم حينما أسمع صفر "رافت"  
ونحية "جميل" المعهودة وهو يمرر أنامله عرضياً على كل  
مفاتيح البيانو، وكذلك ترحيب "حازم".

- حمد لله على سلامتكم يا فنان.

- ايوه بقى ارجع نور الدنيا يا نبيل أفندي.

- تصدق شكلك أحلى فى الجبس.

يتجمعون من حولي وتمنحني "ريدا" عناقاً سريعاً، ثم  
تعاونني على الجلوس على كرسي عمجل، كان "صلاح" قد  
أحضره بناءً على طلب مني، لأتمكن من حضور العرض.

أدخل المسرح مع باقي أعضاء الفرقة فيرتجُ بالتصفيق  
الحداد، لكن هذه المرة ليس فقط لمجرد طلتنا، بل لظهوري  
على الكرسي مدفوعاً من "ريدا"، البعض يعتبر الضعف  
تضحية، والتضحية من أجل الإبداع بطولة، لا يفهمون أنني  
لا أصلح بطلاً، فالأبطال لا يموتون، الأبطال يتكون دائماً ما  
يخلدهم فى نفوس البشر.

يحل المساء فأذهب إلى الساقية متأخراً كعادتي، أدخل  
إلى الممر المفضي للكواليس فتتنامى إلى مسامعي أصوات  
متداخلة للوتريات، تتردد عشوائياً مع تجريب العازفين لها،  
أنا الوحيد الذي لا يجري أي تجربة، يقول "جميل" عني أن  
أصابعي تجيد العزف أربع مما تجيد الكتابة، لكنه يتحرج  
بذات الوقت أن يصارحني بأنني مجرد مقلد لا مبدع.

أدخل متوكفاً عكازي ومتأبطاً الكمان، فتقابلني "ريدا"  
بفستانها الأحمر المتوهج، وكعادتها مغمضة عينيها وفي  
حالة هيام، تفعل "ريدا" ذلك دائماً حينما تجرب صوتها،  
تلقت نظري لآلئ عقدها فأتساءل: لماذا لا أجدها تلمع مثل  
ذي قبل؟! أليست سعيدة؟ كونها تدور حول عنق نجمة  
مثل "ريدا"، تستمتع بدفء الحياة المناسبة فيه؟ وتلمع  
معه تحت وهج الثريات وبريق الأضواء؟ إن كانت كذلك،  
فلم أراها تبتهت يوماً بعد يوم، ينطفئ لون الحياة فيها؟  
ربما هي لم تكن تريد من هذا العالم إلا العزلة، إلا وشيش  
السُّكُون ولحن البحر، لم تكن تريد سوى الإحساس بالأمان بين  
أحضان محاربتها المجددة، المحارة التي استكثرتنا على خشونتها  
أن تحتضن لؤلؤة ناعمة فحرمناها منها، لم نفهم أبداً معنى  
احتياج اللؤلؤة للأمان ولا احتياج المحارة للعطاء فقضينا على

ولا حسب، ولا شيء! أودعكم بلا ولا كلمة بلا ولا تلميح بلا ولا  
إشارة، أودعكم وقلبي ينظر وجعاً على فراقكم، أودعكم  
وجُل ما أتمناه أن تذكروني، أودعكم بعيني، فقط بعيني .

”دي عينيا دموعها، دموعها بتتكلم ..“

\*\*\*

تتخذ الفرقة وضع الاستعداد ويبادر الجمهور بالصمت ،  
فأضع الكمان على كفتي وأستعد ، سنعزف لحن ”يا مسافر  
وحدك“ لعبد الوهاب.

يبدأ ”رأفت“ بالعزف على العود مع مزيج رائع للقانون  
يستمر لنصف دقيقة كاملة ، يتوقف بعدها العزف مفسحاً  
المجال لدخول غايّة في العذوبة لصوت ”ريدا“: ”يا مسافر  
وحدك ... يا مسافر وحدك ... وفايتني ... ليه تبعد عني ...  
ليه تبعد عني ... وتشغلني“ ، تعود أصابع ”رأفت“ لتداعب  
أوتار العود بروعة تفوق الوصف ، قبل أن يدخل ”جميل“  
بالبانو، ويستمر المزيج لنصف دقيقة أخرى: ”ودعني ...  
من غير ما تسلم ... وكفاية قلبي أنا مسلم“ ، تسكت ”ريدا“  
فيأتي دوري مع ملكة الوتريات ، الكمان ، أعزف للحن في  
اللحظة التي تقول فيها ”ريدا“: ”دي عينيا دموعها، دموعها  
بتتكلم“ ، فأعجز عن أن أتمالك نفسي، تفيض دموعي حتى  
أراها تنفرط فوق الكمان وترتطم بالأوتار، حتى لم أعد أرى  
شيئاً ، الأضواء ذابت في بئري بعيني تماماً والملاح! لا ملاح،  
سامحوني ، سأسافر وحدي وأدعكم ، سامحني يا ”رأفت“  
سامحني يا ”جميل“ سامحني يا ”حازم“ سامحيني يا ”ريدا“  
لن أودعكم، لا أجرؤ أن أعذبكم، سامحوني جميعاً ، يكفيني  
من هذه الدنيا أنني لم أنل منها أي شيء، لا نجاح ولا دفء

هل عكازي وأدفع الباب الجرار لينزلق خلفي، أستدير مُكَمَلًا  
«اريني غير عابئ بالمطر المنهمر فوق رأسي، العشب الأخضر  
يرقص من حولي فرحاً بزخات الحياة، المطر بالنسبة لها حياة،  
أما أنا فحلقي جافٌ ودواخلي متبسة كأنني روح مُحَنطة، ما  
يمطر بداخلها لا يعدو كونه حمضاً يأكل حشوتها.

أتقدم رغم أنَّ الرؤية شبه منعدمة، قدمي السليمة تعرف  
الطريق من تلقاء نفسها، أدخل البيت الخشبي لأجده حيًّا  
مُهَبَّجاً، على عكس الشحوب الذي يلف الحياة بالخارج،  
اللباب الأخضر تسلقه، والأقحوانات البيضاء غزت كل بقعة  
منه، يُدهِشُّني أن أجد إحداها ذابلة، لا تستجيب حتى  
لقطرات المطر التي تبللها، لماذا صرت أرى الموت في كل شيء  
من حولي، صرت ألحظ حضوره بوضوح غريب؟ أظنه قد بدأ  
يُبيح لي ببعض من أسراره، صار يعتبرني منه.

أغلق باب الحوش من خلفي، فتنتطفئ شدة الريح  
ويهدأ المطر إلى حد كبير، لا يبقى منه إلا قطرات تنفذ من  
بين فراغات الشبكة الخشبية، وريح خفيفة تتسلل لتلعب  
بأوراق اللباب، أبصر شاهد قبر أُمِّي الأبيض يطل برأسه، كأنها  
تمد عنقها فرحة بلقائي، فأتوجه إليه مباشرة، خمس نقلات  
توصلني إليه، فألقي بعكازي جانباً، وأعانقه وأبكي، بينما  
أناجيتها:

حينما يكون المتبقي لك في هذه الحياة بضع ساعات، هل  
يمكنك أن تنام؟ أهبط بعينين جافاهما النوم، متوكأً عكازي  
وقاصداً الحديقة الخلفية للفيلا، في منتصف طريقي إلى الباب  
المفضي إليها، يعترضني "كامل" بسؤال استنكاري، لكنه  
مشمول بالحنان:

- رابع فين يا نبيل يا بني؟

- هزور امي.

يُدير رأسه يتأمل المطر الذي يرخ من وراء الزجاج العاكس  
ويقول:

- الدنيا بتمطر استنى لما المطر يقف.

- لا معلش أنا لازم اروحلها حالا؟

- ومستعجل ليه بيني.

- مفيش حد ضامن عمره.

تدور عيناه في محجريهما مندهشاً وغير فاهم لما أقول، بينما  
أتجاهل اعتراضه وأكمل طريقي لأفتح الباب، مع انفراجته  
تهبُّ في وجهي ريح ممطرة وتصفر في أذني، أتجاهلها معتمداً

- عايزك تجيب حد بيبي قبر جديد، جوه البيت الخشب،  
جيب قبر أبويا وأمي.

- قبر؟! ايه اللي حصل؟

- مفيش حاجة حصلت بس يمكن نحتاجه في المستقبل.

- نبيل انت خوفتي في ايه؟

- مفيش حاجة صدقني، بس ياريت لو هتجيب حد تجيبه  
النهارده وأنا بره البيت.

- انت رايع فين؟

- هخرج أخلص شوية حاجات وارجع.

- طيب استنى اجيلك أوصلك طيب.

- لا هسوق بنفسي؟

- تسوق ازاي بحالتك دي؟

- هاخذ الJeep الاوتوماتيك؟

- يا نبيل استنى الله يخليك. الجو مطر ومش متحمل.

- لا انا خرجت قبل كده والموضوع كان عادي، متقلقش،

هاخلص وأعدني عليك. سلام.

- وحشتيني قوي، أنا عارف انك حاسة بيا، وعارف انك  
هتسامحيني في اللي هعمله و اللي هقوله، مهما كان صعب  
عليا أو عليكي، انا مش هقدر اندفن معاكم، مش هقدر أكون  
معاه في مكان واحد تاني، كفاية اللي حصل لي منه طول حياتي،  
مقدرش اموت مرتين، أنا استنيت الموت كثير علشان أكون  
جنبك لكن لما جه بقى مستحيل ده يحصل، سامحيني يا أمي  
ربنا يعلم قد ايه انا موجود وقد ايه حاسس بالذنب، لكن ده  
الحل الوحيد اللي قدامي، سامحيني وخلي ربنا يسامحني انا  
عارف ان ربنا بيحبك، ربنا بيحب كل الطيبين والصافين اللي  
زيك، هتوحشيني يا أمي، هتوحشيني قوي.

أفيق من دوخة مشاعري بعد فترة لا أعلمها، تصفو نفسي  
فأعود إلى المنزل وأمسح عيني وألتقط الiPhone، وأتصل  
بصلاح :

- ألو يا صلاح ازيك.

يأتيني صوته بعيداً بإشارة ضعيفة متقطعة:

- ازيك يا نبيل عامل إيه النهارده.

- الحمد لله أنا عايز منك طلب مهم.

- اتفضل.

أستجمع نفسي وأدهس بعجلات سيارتي حَبَّات المطر المتقاطرة فوق أسفلت الطرقات لأحطَّ بها أمام ورشة "خليل نصيف"، من نظرة واحدة أعرف أن الرجل لم ينم ليلته، أرى ذلك بادياً في ملامحه الذابلة وعينيهِ الحمراءوين، بينما يقف أمام ماكينة صنع الوتر وقد شدَّ بين طرفيها خيط الحرير، يديرها لتهدر برنين مززعج ويبدأ في محاذاة خيط النحاس بأصبعه المرتعش عرضياً مع خيط الحرير حتى يتم ضمفرهما سوياً كوتر واحد، بالأخير يوقف الماكينة ويقص طرفي الوتر، ويعلقه على إصبعه، فأرى النجاح يتدلى منه كخط طويل يضع حداً لنهاية مفتوحة.

- صباح الخير يا أرتست

- صباح النور يا فنان.

- هو ده الوتر؟

يفرد جزءاً منه بين أصبعيه المرتعشين مسافة متر، ثم يرفعه أمام بصري متفاخراً: أه هو ايه رأيك؟

أمرر سبابتي عليه وأقول بامتنان: عظيم جدا.

يشده بين يديه بعزيمة تظهر في كرمشة ملامحه وانضغاط أسنانه وتوتر ذراعيه ثم يلين ويقول:

- الوتر ده أشد من وتر الصيد.

- ده بالضبط اللي انا عايزه .

- بس ده مش هيديلك النتيجة اللي انت عايزها وهينشد معاك؟

- مهو ده طلبي بالضبط .

التقط الوتر وأخرج ساهماً دون أن أنطق بكلمة، أركب سيارتي وأثبت سرعتها وأترکہا تشق شوارع القاهرة كأنها جواد يفهم ما يجب عليه أن يفعل، جواد كنت أعرفه يوماً ماً.

مرور الوقت يزداد تعلقي بقمر، كلما أزور المرابط أهرع إلى حظيرته فوراً فأسحبه وأمشى به، شعوري بأنَّ لي صديقاً يحبني وأحبه وبذات الوقت أستطيع أن أفرض سيطرتي عليه يمنحني نشوة نجاح لم أجربها من قبل، يمنحني كذلك نشوة الحب، أعتني به كثيراً، أحضر له السكر، وأستمتع بركة شفتيه وهما ينهلانه من بين يدي، أمسح على جسده بكفي الصغير المبطط فيصهل صهيلاً خفيفاً يعبر به عن حبه لي، لكني بالمقابل لا أحرز أي تقدم ملموس في تعلم الفروسية، أكتفى دوماً بالتمشي إلى جواره في المرابط دون ركوبه، وكلما حاول أبي إقناعي بامتطاء أي فرس آخر أرفض وأبكي، فتضطر أمي أن تستسلم لرغبتني في النهاية ما يشعل غضب أبي، يمسكني

من كتفي وينفضني من الغيظ صارخاً:

- لحد أمتي هتفضل جبان؟

- خلاص يا مصطفى سيبه لما يكبر شوية.

يستجيب لها وفي عينيه يتبدد الشَّرر، لكنه يظل غير راضٍ عن ارتباطي بقمر، كلما يراه يمتعض ويشمئز وينعى حظه العائر الذي أوقعه في هذا الفرس المعيوب الذي لا نفع فيه.

- ق ال قمر قال، ده ضلمه وسواد.

يتغاضى عن علاقتي به لفترة قصيرة، لكن لا تلبث كراهيته له أن تتأجج، حينما أقرر أن أمتطيه في لحظة غضب سببتها معايرته لي بضعفي، أسقط من على صهوته وتنكسر قدمي كسراً شديداً يجعلني أطلق صرخة كادت حنجرتي أن تحترق بسببها، صوت قرقعة قدمي أخافني لدرجة أنني أغشي علي، لم يكن أبي حاضراً هذا الموقف فظنُّ أنه طرحني عمداً، لم يفهم أبداً طبيعة العلاقة بيننا، حينما امتطيت قمر رقص قلبه من الفرح وجري يحتفي بي ويحدر بخيلاء رافعاً رأسه إلى السماء، كأنه يريد أن يطولها، لكن قدمه القصيرة خانته، ووجدتني أتعثر وأسقط من فوقه لأهبط على ساقِي.

- كسر في القصة والشظية.

لم يكذَّ الطبيب يقولها وهو يشير إلى الأشعة إلاَّ وجنَّ جنون أبي، رأيت في عينيه جمرًا يتأجج، كأنه يعقد النيَّة على إلحاق ضرر ما بقمر، لذلك ومجرد أن لُتَّ قدمي بالجيرة تحابلتُ على أمي أن نقيم في المرَبَط خوفاً أن يؤذيه، وافقت على الفور لأنها أرادت أن تتحصَّن حالتي النفسية، إنما لا يمضي لنا يومان في الكوخ إلاَّ ونسمع - ونحن نتناول الغداء - جلبة من حوافر الخيل، يتبعها صوت صهيل صارخ يتواصل، نجفل وترك الطعام ونخرج لتتابع الموقف، تصطدم أبصارنا بعنق قمر وكيف هو عالق بين عارضتين خشبيتين، وقدمه مبرومة ومحشورة مع رأسه بينهما.

يصيح أبي سائلاً أحدَ العمال: ايه اللي حصل يا سلامة؟

- المهر حاول ينط الحاجز يا دكتور.

- الغبي.

يهبط أبي مُسرِعاً إلى الميدان، بينما تساعدني أمي لنلحق به، نصل حينما يكون قد تعاون مع العمال على تخليص عنق قمر وساقه من بين العارضتين وسدحه على بطنه، تصيبني حالة ذهول حينما أجدُه يمد عنقه ويصرخ من الألم، ساقُه القصيرة مكسورة وملفوفة على نفسها على شكل حرف "لا"، أدير وجهي لأبي مستنجداً به، فأجدُه يرفع هوائي هاتفه اللاسلكي

ويجري اتصالاً ماً: ازيك يا دكتور جلال ... انا بخير الحمد لله  
... آه... المهر المعيوب حصله "Compound fracture" ... لا  
الموضوع صعب ومحتاجلك ... طيب هتيجي امتي؟ ... تمام  
في انتظارك.

تفجعني كلماته فأقلت يد أمي وأرمي العكاز وأجلس إلى  
جوار قمر، أدفعه برأسي من رقبته ليقوم، لكنه يصهل صهيلاً  
خائراً تصحبه نظرة استجداء تؤلني أشد من الطعنة، أجدب  
أمي من ملابسها وأترجأها:

- علشان خاطري يا ماما خلي بابا يعالجه.

رُبْتُ على ظهري معلقة عينها بعيني أبي، يتبادلان  
نظرات زائغة لا أفهمها، قبل أن يباشر أبي مع العمال نقل قمر  
إلى العيادة الصغيرة المجاورة لبوكسات الحظيرة .

بعد عدة ساعات يحضر زميله الدكتور "جلال" ومعه  
أدوات طبية، يحقنه الدكتور "جلال" بجرعة مخدرة ويجري  
له بعد ذلك شيئاً يسميه "الأشعة"، أشاهده يفحص لوحاً  
أسوداً باهتمام وتدقيق، أسمعه يتحدث مع أبي عن "fibula"،  
تلك الكلمة التي لم أنسها، وألحظ على وجهيهما الامتعاض  
والأسف الشديد، قبل أن يبدئا في إعادة الساق الملتهفة لوضعها  
الطبيعي في رفق خبير، يكللانه بتركيب دعامات بلاستيكية

دورة ودق مسامير.

بعدها يُشرفان سويّاً مع العمّال على ربط قمر من عنقه  
وبطنه وفخذه بحمالات صفراء من الجلد تتدلى من رافعة  
«يدوية مثبتة في السقف، يسمونها "رافعة أندرسون"،  
رافعه الحمالات ليقف مستقيماً ومتعلقاً بها.

ينتهيان فأشاهد أبي يسأل الدكتور "جلال" عاقداً ذراعيه  
خلف ظهره :

- مفيش أي جديد في أبحاث الزرع؟

وأرى الأسي على وجه الأخير وهو يهز الدعامة ليتأكد من  
لباتها فيما يحرك رأسه نفيّاً .

يمضي يومان وقمر معلق من بطنه، يعاني ويصهل ويخور،  
أحاول أن أقدم له في كفي حفنة من السكر، لكنه يرفض أن  
يلعقها، يوجعني أن أشاهد ما تحت عينيه مبللاً بالدموع،  
دموعه الصامتة تفتط قلبي، أفتح شفتيه فإذا بأسنانه مطبقة،  
حتى الجزر يتشممه ويلفظه، وفي اليوم الثالث أعرف أنه قد  
امتنع عن الطعام تماماً، حينما أسمع أبي يقول لأمي وهو يقرأ  
الجريدة في الحديقة المجاورة للكوخ :

- المهر دخل نوبة اكتئاب.



يقولها ويقلب صفحة الجريدة بشكل روتيني، فيما دمعة  
تتجمّع في عيني أُمي الفيروزيّتين.

\*\*\*

لا أدري هل قادنتي السيارة إلى شركة أبي، أم قُدتها أنا،  
لكّني وصلت في غضون نصف الساعة .

أدخل "Tri-Vac"، شركة الأدوية التي أنشأها أبي لتجارة  
أصال الحيوانات والطيور والأسماك، معتمداً على صديقي  
الصدوق هذه الأيام، عكّازي، أستطيع بمعاونته أن أدوس  
على قدمي المُجَبَّرة على الأرض، لكن بحذر شديد. لم أت إلى  
هنا ولا مرة منذ افتتاح الشركة، وبالقطع عزوفي عن الحضور  
كان يثير جنون أبي، إحساسه بأن كل ما يفعله سيضيع رغم  
أنّ له ولداً كان يقتله، وبالمقابل يسعدني، على أيّ حال قد  
فات ما فات.

أمام الاستقبال يستوقفني أحدُ موظفي الأمن:

- اهلا وسهلا حضرتك داخل ملين؟

يضايقني أنهم لا يعرفونني لكنني أجابه :

- أنا صديق شخصي للأستاذ صلاح.

- في ميعاد معاه؟

- لا؟

يرفع سماعة الاتصال الداخلي ليستأذن ، بينما يسألني  
نقول له مين؟

- نبيل الليثي.

يفهم أنني مالك الشركة ، فيعيد السماعة إلى مكانها ، ويمرر  
بطاقة المصادقة على الحساس فيفتح الباب الزجاجي بطاقة  
مميزة ، يدفع لي دفة الباب متراجعاً ومشيراً براحته :

- اتفضل يا أفندم.

أعبر لأمر بين مكاتب الإدارة المُقسَّمة إلى مقصوراتٍ زرقاءٍ  
متجاورة ، يحمل باب كل منها لافتة معدنية صغيرة ، تشير إلى  
اسم الموظف ومسمى وظيفته ، فلا يعبرني أحدهم أيَّ اهتمام ،  
كلهم منشغلون إما بالاستجابة لرنين الهواتف أو استقبال  
الفاكسات وطباعة الأوراق ، عند نهاية الممر الفاصل بين  
المكاتب الصغيرة يظهر مكتب "صلاح" ذو الواجهة الزجاجية ،  
ألمحه من بين شرائح الستائر المفتوحة ، يدور بالغرفة منهمكاً  
في مكالمته ما ، أتقدم وأصل عند باب مكتبه بعدة خطوات  
قليلة ، لكن قبل أن أمسك بالمقبض تستوقفني اللافتة  
الزجاجية المثبتة على الباب :

"المدير العام".

شيء ما يحيك في صدري تجاه تلك الجملة ، غيرة ممزوجة  
بعدم لا أجد لهما سبباً ، لكن لماذا أغاز وأنا من تجاهلُ  
كل هذا؟! أكتب هذا الإحساس وأفتح الباب لأدخل فيتصلب  
"صلاح" في ذهول فور أن يراني ، يُنزل التليفون من على أذنه  
ونفتح عيناه على اتساعهما :

- نبيل!

- مفاجأة مش كده؟

أقولها بينما أستريح على الكرسي المخملي المشدود ، المستقر  
قبالة مكتبه ، وأضع عكازي لأردف في نبرة لا تخلو من حسرة :

- أول مرة اجي الشركة ، لدرجة ان الموظفين في الاستقبال  
معرفونيش.

يتجاوز كلامي ويقول بلهجةٍ فظةً ، تذكرني بلهجة أبي :

- ايه اللي عملته ده يا نبيل انا لسه قافل مع مدير البنك  
ومش مصدق اللي قالهولي.

- قصدك على التحويل.

- اه طبعاً ، حولت 20 مليون جنيه لمين يا نبيل؟

- مش هقدر أقولك.

- يعني ايه مش هتقدر تقولي، أنا في موقف سيء والشركة بتقع.

يقولها ويُهزَع لمكتبه ، فيجمع من على سطحه عدة أوراق متنورة ليعرضها أمامي ، واحدة تلو الأخرى.

- شايف ده؟ ده فاكس بأمر تعميم مباشر لمدة 3 سنين لتوريد أمصال لمزارع الصفا، وده زيه لمزارع المراعي، وده لمزارع جرين فارم، وده لميت لاند وده للمصرية السودانية، وده لمصر فوودز، والورقة دي أمر الشرا اللي احنا بعتهاه لمصنع Pure Complex في إنجلترا، تركيب نسب اللقاحات والأمصال، وطبعا شايف المبلغ المكتوب تحت.

ويشير بأصبعه إلى آخر سطر في أمر الشراء ، فأتفرّس في الرقم بتدقيق ، 4 مليون وثلاثمائة ألف وخمسمائة وأربعين دولاراً ، بينما هو يواصل شكواه ، مشيحاً بذراعيه دليلاً على قلة الحيلة:

- انا المفروض اجمع الدولارات دي من السوق خلال كام يوم، وإلا كل الشغل ده هيبضيع، وطبعاً رصيد الشركة في البنك لا يسمح بعد اللي انت عملته بدون ما ترجعلي ولا حتى تاخد رأيي.

-رأيك مكنش هيفرق.

يزداد عصبية فتجحظ عيناه الواسعتان : يعني ايه مش هيفرق، انت متصور حجم المجهود اللي عملناه علشان نكسب المناقصات دي؟ انا الموظفين عندي مكشوف بيناموا، اشتغلوا ليل نهار علشان يجهزوا العطاءات ويدخلوا العينات فحص وياخدوا عليها الموافقات والتراخيص.

أمدُّ يدي له بالشيك غيرَ مبالٍ بما يقول ، فيخطفه وينظر فيه :

- ايه ده ؟ 5 مليون جنيه؟ اعمل بيهم ايه؟

- دول ليك.

يرمي بالشيك على المكتب وينظر في عيني بتحدٍ ، معتمداً براحتيه على ذراعي الكرسي الذي أجلس عليه :

- نبيل أنا الشغل ده اهم عندي من أي فلوس؟ ده تعبي وشقايا شهور، وبعدين لو سمعت كلامك وبقيت أنا بي وبصيت لنفسي بس، كل بيوت الموظفين اللي بره دول هتتقفل، الفلوس دي مش هتتفعني وانا قاعد في بيتي، احنا قيمتنا في شغلنا مش في الفلوس وبس يا نبيل، قيمتنا في نجاحنا وتعبننا، في احساسنا واحنا بنشوف أهدافنا بتتحقق ونشوف نفسنا بنكبر واسمنا بيعلا.

- بعث حد الفيلا بيني القبر؟

يكاد يُجَنُّ وهو يضغط أسنانه ويعتدل ليقول عاقداً ذراعيه،

- من بدري، ولو سمحت متغيرش الموضوع اللي بكلمك فيه، الفلوس دي لازم ترجع يا نبيل.

- الفلوس دي مبقاش ينفع ترجع يا صلاح.

- يعني ايه مينفعش ترجع؟ و ليه؟

- لأنها مبقتش ملكي.

- مبقتش ملكك أزي؟ حولت الفلوس لمين يا نبيل؟

- مش لازم تعرف.

- يعني ايه مش لازم اعرف؟

- يعني مش لازم،

- انت عايز تجنني؟

- لا أنا بس حببت أعرفك.

- انت جيت هنا ليه يا نبيل؟

- علشان أدريك الشيك .

- متأكد؟

- أه طبعا

أقولها وأتركه لذهوله، فأعتمد على عكازي وأغادر، لم اصارحه برغبتى الدفينة في تحطيم أحد الأصنام التي عذبني ابي كثيراً لانصرافي عن عبادتها.

- عمرك ما هتبقى بني آدم، الشركة هتضيع من بعدي بسببك.

لكني أظنه قد لاحظ التشفي الذي كان يقفز من نظراتي.

أكتشف أن كل الموظفين قد تجمّعوا أمام غرفة مكتبه، صوته كان عالياً جداً، لكني لا أهتم، أفجّ لنفسي طريقاً بينهم وأغادر لأركب سيارتي وأرحل.



أهدته على هيئة أنشودة متينة ، أنشودة كافية للموت.

أتقدم نحو الوتر بخطوات واثقة رصينة ، وقلب يشعر  
بالتماسك لأول مرة منذ سكن هذه الضلوع ، للمرة الأولى لا  
أجد في نفسي أي تردد أو حيرة ، بل أشعر أنني ممتلئ بالقوة  
حد المغامرة الأقصى ، وربما حد الجنون.

هذه هي لحظتي ، لحظة الانفصال الاختياري عن الحياة ،  
واللجوء الاختياري أيضاً للموت ، غافلني الموت في ساعة غدر  
حدّ فيها مهلتي بدقة موظف بيروقراطي متصلب ، وسرقت  
الحياة مني نصفها بعثت غانية لعوب ، كأنهما يؤازران أبي في  
لعبة تحديد مصيري ، لكني الآن أضعهم جميعاً ، أهزمهم في  
لحظة ميلاد جديد ، أتخلى فيها عن بقايا فرصتي من الحياة ،  
وأهرع فيها إلى الموت دون أن يستعد ، أقطع للأبد سلالة أبي.  
لحظة انتحار إنسان ميت.

إنسان ترك على سريريه وصبة تحمل كل آماله من تلك  
الحياة ...

”ادفنتوني لوحدي في القبر الجديد“ ...

أقترب من الوتر المتدلي ، وأمرّر رأسي بين فراغه ، أشد  
الفثيل حتى يحزّ في رقبتني ، أعتمد على عكّازي، أعطي الكرسي



## (قد لا نصل)

بمشاعر جنينية بريئة ، وقلب متخلص من كل أحمال  
الماضي وترسباته، أقف على بعد خطوات من نافذتي المفتوحة،  
أراقب الغيوم وهي تحتشد لتشهد مراسم الوداع الأخير،  
موجات متواصلة من الهواء البارد تهبّ على وجهي وجسدي،  
أشعر معها كأنني طائرة ورقية تهفو بحرية في موج الرياح ،  
لكنها حرية منقوصة فما زال هناك خيط رفيع يربطني بتلك  
الحياة ، جدران غرفتي الرمادية تحتوي موسيقى My silent  
cry المنسكبة من نظام الصوت المحيط ، ودقات الخامسة  
صباحاً تعلن عن وصول رحلتي قبل مواعدها ، حتى قناة  
”Showtime“ تؤازرنني ، تعــــــــــــــــرض  
فيلم ”The Fault in Our Stars“ ، كل شيء مثالي بشكل لا  
أتصوره ، مثالي بشكل يُقلِق.

تلاحق أنفاسي الثقيلة يبتلع كل الأصوات من حولي ، لكنه  
سرعان ما يطيش بفعل دمدمات الرعد المتفجرة في قلب  
السماء، أنتظر ريثما ينطفئ وميض البرق المتكسر بين الغيوم،  
فأنقل بؤرة تركيزي إلى الوتر المعلق في حلق النافذة البيضاء،

الخشبيّ، أخطو فوق إفريز النافذة، وبلا أتردد أقفز...

أحلق للحظة في عالم حُرّ بلا قيود، لكنها للأسف أقصر من أن تحكي، يخطفني الوتر من رقبتني بعنفوان قاتل مأجور، يعصرني لأعينن أُمّ الموت، قبَسَ الحياة ينطفئ في روحي، أغيب.

يتوقف الزمن .

أعلق في لحظة من العدم، قائمة وصماء، لا أشعر فيها بجسدي، لكنني موجود، ربما لا أحس بشيء، لكن بمقدوري أن أفكر، يبدو أن الموت ما هو إلا حالة يعلق فيها الإنسان داخل مساحة أبدية من العزلة، لكن يبدو أيضاً أنه حتى العدم يفنى، فهناك صوت صهيل خائر أسمعته يتنامى بوضوح، ينفث في جسدي الروح فأفزع له دوغما سبب، أدلي قدمي لأهبط من سريري، أكتشف أنهما صغيران، وأن اليسرى مكسورة، فأعرف أنني في كوخ المرابط، وأفهم أن ما سمعته هو صوت قمر، أتأبط عكازي وأتوكأ عليه للخروج، عند عتبة الباب أرى الشمس في البعيد مثل برتقالة منيرة تتزلج سماء ثلجية باردة، وأرى الهواء يتلاعب بأغصان شجرة الليمون المزروعة أمام الكوخ، أنزل الدرجات الخشبية في مجاهدة، متجهًا إلى حظائر الخيول وتحديداً حظيرة قمر، أصلها بعد عشرين

اللحظة لقدمي فأتوقف مستنداً إلى بابها الخشبيّ القصير، أعلق بصمري بأبي الواقف من أمام قمر مولياً ظهره لي، يتأخر عنه الدكتور "جلال" بخطوة وأمي بخطوتين، أشاهد الدكتور "جلال" يكلمه، ماداً له يده بمحقن زجاجي كبير:

- حقنة كلوريد صوديوم في الوريد هترجه يا مصطفى.

إنما أبي يرفض ويقول:

- الخيل عزة وكبرياء يا جلال.

ويُنزل بندقيته من على كتفه ويصوب عنقها إلى قمر، يرتجف قلبي حينما أرى أُمي تحوّل وجهها بعيداً، والدكتور "جلال" يمسك بذراع أبي الأيسر يترجّاه:

- موت رحيم يا مصطفى.

- موت عزيز يا جلال.

يفلت أبي ذراعه ويشد مشط البندقية ثم يطلق رصاصه الغادرة، فلا يكاد صغيرها يتبدّد حتى يغمر الدم قمر، ويطرطش ملطخاً القش من حوله، يفجعني المنظر فأصرخ وأنا أحجل نحوه: قمر!

يلتفتون إليّ ويجذبني أبي من ساعدي:

- ابعد يا نبيل انت مش فاهم حاجه .

وتصرخ أمي فيه: الولد شاف المنظر.

ينشغل مع تأنيبها فأقلت يده وأهبط فوق جسد قمر الحار المتعرق ، أحاول أن ألملم الدم المتفجر من غرته بكفي الصغير، لكن لا شيء يفيد ، قمر لا يرفع رأسه ولا قوائمه ، قمر مات.

يفور الغضب بداخلي حتى لا يهدأ.

تمضي اللحظات المتبقية من النهار وأنا في حالة خرس تام، لا أنطق ولا أحرك ساكناً ، حتى بصري لا أحوله عن كرسي الخشب مكسور الساق ، المستند إلى جدار غرفتي ، تحاول أمي إخراجي من تلك الحالة بشتى الطرق ، تحضني ، وتكلمني :

- بابا هيجيبلك مهر زيه يا حبيبي متزعلش.

لكني أبعدها، وألفظها ، أمنحها نظرة لائمة تلمع بالدموع! تسألها لماذا تركته يقتله؟ وتفهمها فتربت على كتفي تواسيني، فيزداد غضبي ، أحول وجهي إلى الكرسي وأضرب قدمه السليمة بعكازي ، فينكفئ على مسنده .

يخُلُّ المساء فاستغل انشغالها بإعداد القهوة لأبي، وأغافلها

لأهرب من الكوخ، بداخلي كراهية ممزوجة بخوف، يجعلان من قلبي جمره تحترق بين أضلعي، لا يمكن أن أعود لأبي مرة أخرى، أبي قاتل، قتل قمر، قتله لأن قدمه مكسورة، أعتمد على عكازي وأدفع جسدي بأسرع ما أستطيع لأخرج من الباب الخلفي . على عتبه ، الملح شاحنة كبيرة تقف عند الرصيف تحت مخروط ضوء عامود الإنارة ، أنتبه أن أبواب صندوقها الخلفي مفتوحة ، فتراودني فكرة الاختباء بداخلها، أعود فأتردد قليلاً ثم أحسم موقفي وأهرع إليها، حينما أسمع صوت أبي ينادي أمي، أعاني حتى أصلها فأضع عكازي بالداخل، أعتمد بذراعي على سلمها الخلفي، وأدفع جسدي لينزلق إلى جوف الصندوق المظلم، ومجاهدةً أزحف على بطني حتى أختبئ في ركن بعيد منه، أشر على حاوية للتبن فأتكور خلفها وأستكين ، بعد برهة أسمع أصواتاً تقترب، وأرى أحدهم يفتح الباب فتسقط بقعة النور داخل الصندوق، مقطوعاً منها ظلال ممطوطة لعدة رجال، غير أنها لا تنال من مكاني ، أنا كامن في مكمني المظلم، صامت، أرتعش.

يزداد خوفي حينما أسمع أحدهم يقول : ارفعوا معايا يا رجالة.

وأسمع أنينهم ، وهم يطرحون شيئاً ضخماً داخل الصندوق،

أراهم يغلقون دفتي الباب فيتلاشى النور وأسمع تكّة معدنية، يليها هديرٌ أحس معه بتحريك السيارة. ترحل بي إلى حيث ينتظرني المجهول ، مع استغراقي في الظلام أبداً في رؤية بعض الملامح تدريجياً، أكتشف صندوقاً للعدد وعدة حبال لا أعرف فاندتها، أبسط راحتيّ على أرض الصندوق، وأدفع جسدي بذراعيّ لأزحف من الوضع جالساً إلى الباب، وهناك تتأكد شكوكي حول الشيء المسجى داخل العربة، أيا وجعي، إنه قمر.

عيونه المفتوحة المبرقة ولسانه المتدلي من بين أسنانه البضاء الغليظة يخيفاني منه، لكن حبي له مازال ينبض بداخلي بنفس حرارته وحنينه الأول، أنيخ رأسي فوق رقبتة التي انسحب دفؤها، أستسلم للحزن فأبكي، وأنسى العالم وأنا.

- "قل يا عبادي الذين أترفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم".

أفيق على صوت رائق يرتل تلك الآيات من القرآن الكريم، لا أفهم أين الموت، لازلت لم أره ، أو ربما هو هكذا ، مجرد حالة انتقال لعزلة تصاحب فيها ذكرياتك، لو كان كذلك يكون الموت نعيماً لسعداء الحياة وجحيماً لتعسائها. المشكلة أنني

أعرف صاحب الصوت، أوقن أنني سمعته من قبل، لكنني لا أحمل أي ذكرياتٍ عن تلك الآيّة، ربما هو ملك أو أحد الصالحين! لا أظن، فأنا لا أستحق الجنة، لم أقدم في الحياة مهراً لحورها ولا قرباناً لأنهارها.

- "وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون".

في صعوبة أرفع جفنيّ الملتصقين بمقلتيّ لأستطلع المشهد، قدرتي على الرؤية لازالت مشوشة، لكنني بمرور الوقت أبداً في تبين ملامح المكان، أنا في غرفة عناية مركزة، عند طرف سريري يجلس صديقي "أيمن"، وبين يديه مصحف.

أستوعب الموقف كاملاً، أنا مازلتُ على قيد الحياة، لكن كيف؟ لا بد أن هناك خللاً ما حدث ومنعني من الانتحار، أحاول أن أنه "أيمن" إلى أنني قد استيقظت، لكني ما زلتُ أفقد السيطرة على أطرافي، جسدي أثقل من عقلي كأنه يجثم على روحي أو كأنّ الخدر يعيد حقن نفسه داخل أوردتي من جديد، جرعته تتدفق بين خلاياي مركزة مؤلمة، تسحبني من الحياة كوحش يشد فريسته إلى حيث عرينه المظلم الملتف المخيف.

أستيقظ على صوت اصطدام جسمين معدنيين، تنجم



أفتح عيني ليقابلني وجه صديقي "أيمن"، أفيق تدريجياً  
وأعتدل لأتبادل معه كلمات قليلة متباعدة، لا تخلو من شكر  
وإفراح مني بوجوده، وحمد لله منه على شفائي، وتنتهي  
الملاحظات بأن يبدأ في تفسير ما حدث:

- أنا شفت اللي حصل من بلكونة الفيلا عندي، شوفتك  
وانت بتقع من الدور الثاني، فجريت الحقك، لقيتك غايب عن  
الوعي وفيه وتر متعلق في رقبتك، شلتك انا وكامل وجبنك  
المستشفى هنا، طبعا فهمت إنك كنت بتحاول تتحرر وده  
سدمني جدا فيك، ليه تعمل كده في نفسك يا نبيل؟

- النهارده كام في الشهر يا أيمن؟

يندهش من سؤالي لكنه يجيب: النهارده 6 يناير.

- يعني انا بقالي هنا 3 أيام؟

- آه تقريبا، كنت بتفوق أوقات قليلة وترجع تنام ثاني  
بسرعة، الدكتور قال ان رجلك المكسورة انكسرت في مكان ثاني  
والشرايح غيرت مسارها، بس في النهاية عملوا لك عملية فيها  
والحمد لله تمت على خير، قدر ولطف.

- مش هتفرق.

عنه موجة ارتجاجية شديدة تنفض أضلاع الصندوق وتهد  
جسدي، أدرك أن صندوق الشاحنة قد التحم بأخر، وأني  
أمسيئُ داخل نفق صغير من الجدران الحديدية، وتندب  
حواسي فجأة لصوت أنفاس ثقيلة تتردد بصدى مريب، أوزر  
فأسحب عكازي وأتراجع لأنكمش خلف حاوية التبغ، بينما  
أسمع الرجال بالخارج يصيحون:

- اتأكدت من الأقفال كويس؟

- اطمن تربست كل حاجة.

- طيب افتح.

بنهاية حوارهم، ينفجر صوت صرير حاد، كأنَّ بوابة تنزاح،  
يتبعها ديبب ثقيل، أمد رأسي من خلف حَمالة الحاوية، فأرى  
على امتداد الصندوق عينين زجاجيتين كبيرتين تلمعان في  
الظلام، أنكمش في مكاني وأكتم أنفاسي حينما أتبيّن أن القادم  
باتجاهي مُرّ مخطط، يرتعش جسدي، مع تصاعد هدير  
زفراته، يزار فاغراً فكّه المربع، فكانَّ العالم من حولي يتزلزل،  
أطبق عينيّ ضاغطاً عليهما بشكل غريزيّ، يتكرر الزئير، ينخلع  
قلبي الطفوليّ الرهيف، لا أحتمل الموقف، يصرعني الخوف.

- حمدلله على سلامتكم يا نبيل

- يعني ايه؟

- يعني مش هتفرق.

- يا نبيل الجسد ده مش ملك الانسان زي ما هو فاهم،  
مش من حقك تدمره ولا تأذيه، الجسد ده أمانه ربنا منحها  
لروحك، ولما تدمره أو تأذيه تبقى خنت الأمانة دي، وخاين  
الأمانة عقابه عند ربنا شديد.

- برده مش هتفرق.

- فيه ايه يا نبيل؟ انت بتتكلم كده ليه؟ وليه حاولت  
تنتحر؟ هو في سر أنا معروفش؟

أرُدُّ بفراغ صبر:

- آه يا أيمن ... في سر متعرفوش ... أنا عندي سرطان في المخ  
وحالتي متأخرة جداً، تقريبا فاضلي أيام، عرفت بقى انها مش  
هتفرق؟

يسكت طويلاً ، محاولاً احتواء صدمته فيما قلته ، ثم يعود  
فيسألني:

- الخبر ده عرفته امتي؟

- من شهر وزيادة.

يتنهَّد ثم يقول: بص يا نبيل ربنا سبحانه وتعالى بيقول :  
”وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض  
الموت“ ، وده دليل ان ربنا اختص نفسه بساعة الموت، يعني  
مفيش حد من البشر يقدر يحددها غيره.

- انت بترفض الطب يا أيمن؟

- لا طبعاً، أنا برفض اننا نجعل من الطب قدر يحكم فينا  
بحكم ربنا، أنا مش بقول ان كلام الطب غلط، بس الطب  
حدد ميعاد تقريبي لموتك، الميعاد ده ممكن يزيد سنين،  
وممكن يقل أيام.

- الوقت فات على الكلام ده يا أيمن أنا أقرب للموت مني  
للحياة.

- حتى لو اتفقت معاك ومع الطب في النقطة دي هرجع  
وأقولك ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال: ”لو قامت الساعة  
وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها“.

- يعني ايه.

- يعني لو الدنيا دي بتتهد وقصة الحياة بتنتهي الانسان  
مطالب بأنه يجتهد ويستغل كل لحظة فيها، مش يضيعها  
ويحاول يأذي نفسه بإنه ينتحر، الأصل في الوجود الحياة مش

الموت يا نبيل، الموت طارئ على طبيعة الكون.

- الحياة بتنتهي بالموت.

- لان انت فاهم غلط ربنا قال على حياتنا دي الحياة الدنيا لأنها مؤقتة، "ياقوم إنما الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة لهي دارُ القرار"، مجرد تصفيه لأنفس اللي تستحق الخلود، ربنا خلقنا للخلود يا نبيل، علشان كده الروح مش بتموت، الروح بتقبض لفترة يعلمها الله، وينستردها لما يأذن.

تواصل أسئلتى الواهنة:

- تفكر الكلام ده حتى لو اقتنعت بيه ممكن يغير حاجة، يزود في عمري يعني؟

- لازم يغير، اعمل خير واغتنم نعمة الحياة لآخر لحظة، بس بالحلال واللي يرضي ربنا.

غير مقتنع أحاول أن أنهي الحديث: شكرا يا أيمن على تعبك معايا.

- متقولش كده يا نبيل احنا جيران وأصحاب، وليك عليا بدل الحق ألف، بس المشكلة كانت فيك انت، انت دائما عايش جوه نفسك لما بتكلم، بتكلم نفسك، ولما بتفهم، بتفهم

المسك، ولما حتى بتتوجع، بتتوجع جوه نفسك، سيب مساحة من نفسك يشاركك فيها اللي بيحبوك يا نبيل، وادي كمان من نفسك لغيرك. ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط يا سيدىقي.

- بالعكس الي زي لازم الحياة تتخلص منهم، عارف لما رجلي انكسرت وانا طفل، كنت بصرخ من الألم وبصرخ أكثر من منظرها وانا شايفها مفصوله عن جسمي كله، أنا بالنسبة للحياة زي الرجل المكسورة دي، حاجه بتخليها دائما ضعيفة ولازم تقطعها علشان تفضل قوية.

- وليه متصلحهاش؟

- لانها هتفضل نقطة ضعف.

- الحياة محتاجة الضعيف زي ما هي محتاجة القوي يا نبيل.

- انت اول حد اسمعه يقول الكلام ده ..

الرسول عليه الصلاة والسلام قاله ، قال : "إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم"، عارف ليه؟ لأن القسوة مستمدة من القوة، يفرق بينهم حرف واحد، إنما الضعف بيلين القلوب، بيحي فيها الرحمة والمودة والحب، والحاجات الثلاثة دي هي

اللي بتخلي للحياة معنى وطعم وسبب، الضعيف مش عال  
على الحياة، الضعيف نبضة ليها.

تبادل حواراً سقيماً لفترة قصيرة يقوم بعدها ليمسك  
جبهتي براحتة ويتمتم بالمعوذتين فأفهم أنه يرقيني ، أندھش  
بشدة ممّا يفعله ، غريب هو.. أظن أن مئة شفاء من الموت؟

\*\*\*

برحيله أستدعي الممرضة ، أطلب منها تجميع بطاقات  
التهنئة المشبوبة في بوكيهات الورد التي تحاصر الجدران، من  
أقصى اليمين لأقصى اليسار، بمختلف الأذواق والألوان.

- حمد لله على سلامتك يا حبيبي "مامتك الثانية" ... لا  
بأس طهور ان شاء الله، أخوك أيمن ... ألف سلامة عليك يا بيلو،  
مقامات وحركات، تخيل الواد رأفت البخيل قال لازم نشترك  
في بوكيه واحد بدل ما نجيب 4 بوكيهات = D ... سلامتك،  
د.رماس ... ان شاء الله تقوم بالسلامة، نرمين كمال... ترجعلنا  
بالسلامة يا نبيل، صلاح ... ربنا يقومك بالسلامة، مدام ليلى...  
ربنا يحفظك ويسلمك دايماً، عمال المرابط... تمنياتنا الطيبة  
بالشفاء العاجل، Tri-vac.

أكثر بطاقة تدهشني هي بطاقة "نرمين"، موظفة البنك،  
كيف تعرف ما جرى؟ يبدو أن الخبر انتشر على نطاق واسع،  
أتذكر ملامحها الجميلة وأناقتها فأجديني أبتسم رغماً عني،  
لكن سرعان ما تتلاشى ابتسامتي حينما أسمع طرقات خفيفة  
على باب الغرفة، يتبعها دخول من آخر شخص أتوقع حضوره.

- حمد لله على سلامتك يا فنان.

- الله يسلمك يا أرتست افضل.

يقترّب بخطوات وثيئة حتى يجلس إلى جوارى ويهمل  
نحوي فيحك جبهته توتراً ويقول:

- أنا أول مرة مبقاش عارف أتكلم، تعرف إن دي أول مرة  
أفرح أني فشلت في حاجة، أنا لو كنت أعرف إنك عايز الوتر  
علشان كده مكنتش عملته أبدا.

- ولا يهملك يا ارتست، لكن انت عرفت اللي حصل لي  
ازاي؟

- أنا شفت الخبر على قناة المحور، "مالك Tri-vac يتعرض  
لأزمة صحية" وجنبها صورتك، ولما سألت عليك في الشركة،  
دلوني على المستشفى هنا.

- فيك الخير يا ارتست.

- طيب انا عارف انك تعبان ومش هطول عليك.

يقولها بينما يضع مبلغاً من المال على الكومود المجاوز  
لسريري فأستفهم منه: ايه ده؟

- دي فلوس الوتر، طالما فشلت يبقى مش من حقي.

- يعني انت زعلان ان الوتر مشنقنيش!

أقولها بسخرية باهتة فتجزع ملامحه وينفي: لا طبعا يا

شان، ده كلام تقوله؟! بس في كل الأحوال انا فشلت.

- انت تعبت واشتغلت وعملت اللي عليك، انا اللي وزني  
كان أثقل من اللازم، خد الفلوس لو مبسوط إني لسه عايش.

يتردد لكني أومئ له برأسي راضياً، رغم ذلك يستعيد المبلغ  
بأصابع مترددة ويغادر، مع خروجه تدخل الممرضة، وتقترّب  
مني وتعد إبرة مسكن، تمررها بأنامل خبيرة في وريدي، وعلى  
الفور ينسحب النور من حولي ويحل الظلام.





### (بعد أي رحيل)

أفيق لأجدي راقداً على سرير طبيّ وأمّي إلى جوارّي ،  
لم أفهم ما حدث، لكنني أعرف بعدها أن أبي اتصل بالسيرك  
الذي يبيع له جثة قمر وأن الرجال أسرعوا يفصلون العربتين،  
ووجدوني نائماً خلف حاوية التبن، وأن الجميع لم يتصوّر أنني  
لازلتُ على قيد الحياة.

- صدمة نفسية مضاعفة أفقدته النطق.

يقولها الطبيب فينهار أبي على مقعده وتضمّني أمي وهي  
تسأله بصوت أقرب إلى الرجاء :

- مضاعفة ازاي؟

- الولد شاف الحصان للي بيعه بينضرب بالنار وبعدها  
اتعرض لموقف لو واحد كبير اتعرضله ممكن يحصله فيه  
سكته قلبيه، احمدوا ربنا انه اتعرض لحالة اغماء بس، ده  
انكتب له عمر جديد.

تمتدُّ حالة الخرس معي لما يزيد عن ثلاثة أشهر، تضربني  
فيها الكوابيس ونوبات الفزع، ويتناوب على حالتي الأطباء

النفسيون، يحقنونني بجرعات من المهدئات ومرخيات  
العضلات، ولا أمل، إلى أن يأتيّ يوم ممطر، يُخَيِّلُ إليّ في  
صبيحته أنني أسمع صوت صهيل متواصل، فأتوكأ عكازي  
وأتبعه إلى الحديقة الخلفية، لكنني حينما أدخلها لا أجد شيئاً،  
لا أجد سوى العشب الأخضر الخالي، والمطر المنهمر، أدور  
حول نفسي، ربما أعثر على الفرس صاحب الصهيل، فينزلني  
العكاز ويختل توازني، أسقط للخلف فيرتطم رأسي بالأرض  
المبلولة، أعجز عن القيام فلا أجد سبيلاً إلا أن أناديّ أمي،  
أستجمع قواي وأطلق صرخة استغاثة، في البداية لا يخرج  
صوتي، لكنني أحاول مرة بعد أخرى حتى يتحرّر ويتردّد عالياً  
بين جنبات الحديقة، تسمعني أمي فتهرع إليّ جزعة، تهبط  
على ركبتيها وتحضنني تحت المطر، تمطرني بقبلات ملهوفة،  
فأحس بشفتيها الرطبتين ترتجفان على خدي وملوحة دموعها  
تلذع شفاهي، أسمع من قلبها رقصة فرح صاخبة ويتسرّب  
لي من حضنها دفء مفعم بالأمان، وأسمع همساتها تطرب  
كمعزوفة للحنان:

- حمد لله على سلامتك يا حبيبي.

تكررها وصوت نهنية بكائها يداعب أنفاسي، يتلاحق فلا  
أكاد أفرق بين غزارة دموعها، وغزارة المطر.

.. "اصحى يا حبيبي الساعة 12" ...

يهمس لي هامس بتلك الكلمة، وأسمع ستائر غرفتي تنزاح، فيغمر الوهج كل أرجائها، أفتح عيني فتقابلني ملامح "ريدا" الجميلة، وهي تقرب وجهها من وجهي وتطبع على خدي قبلة نديّة ثم تُسده بخدها وتداعبه بأنفها، بينما ذراعها يحضنان رأسي .

شفتها الممتلئتان تهمسان برقة:

- كل سنة وانت طيب يا حبيبي ، النهارده عيد جوازنا.

أعانقها بنفس مستوحشة وقلب يرتجف، أعتدل لأجلس فيما أنفاسي لاهثة متلاحقة، تشي بأنني لست بخير، تفهم من حالتني أن ثمة ما يزعجني فتحضن رأسي في صدرها وتقبلها، تسألني بصوت حنون :

- شفت حلم وحش ولا ايه؟

- آه

- غريبة انت عمرك ما حلمت!

- هو مش بالطبط حلم، هو حقيقة.

تضع وجهها أمام وجهي متسائلة: ازاي؟

أسكت قليلاً حتى تهدأ أنفاسي ثم أقول: هو ممكن حد يحلم بذكرياته؟

- تقصد إيه؟

- اقصد إني حلمت بكل اللي حصل لي من سنة، من أول ما عرفت إن باقي لي شهرين وأموت لحد ما ...

تقاطعني بنبرة يمتزج فيها الضيق بالغيرة : لحد ما قابلتها مش كده؟

- لا لحد ما حاولت انتحر.

تندهش ، يبدو ذلك في ارتفاع حاجبها القصيرين ، لكنّها توافقني الرأي: غريبة فعلا ، اشمعني اللحظة دي تحديدا؟

- مش عارف يمكن علشان الحلم ببدا فجأة وينتهي فجأة؟

ترّم شفتيها وتعقد جبينها غير مقتنعة، نتبادل الصمت لفترة قصيرة تنهيهما دقة للحادية عشر صباحاً، حينما يقصف العقرب رأسها، تنظر مهتمة في ساعة يدها الصغيرة، وأنتبه فجأة إلى أنها ترتدي زيّ الخروج، تتوتّر قليلاً قبل أن تصارحنى بارتباك مشوب بتأسف:

- معلش انا عارفه انك تعبان بس انا لازم اخرج، عندي

بروفا مهمة جدا على اللحن بتاعك زي ما انت فاهم.

أهزُ رأسي : أن لا عليك ، فتهيم في ملامحي لثوانٍ ثم تقبلني  
وتقول: بحبك قوي يا حبيبي يا اجمد كومبوزر في مصر.

- وأنا كمان بحبك قوي.

تقبلني ثانية وتغادر لتتركني أصارع ضميري، هذه هي  
المرة الأولى التي أكذب عليها فيها منذ أن تزوجنا، المسألة  
ليست مجرد حلم راودني، بل رسالة أرسلتها لي "ريماس" ليلة  
أمس ، زوجتي الأولى التي طلقته في لحظة لازلتُ لا أعرف  
هل كنتُ ظالماً لها فيها أم لا ، فالحقيقة أنني لازلتُ أحبها،  
وكأشد ما يحب الرجال النساء، لكنني أعجز عن أن أسامحها،  
تربيتي القاسية بيئت أفحوانة التسامح التي تولد في مهجة  
كل طفل، لكنني أعرف جيداً أنني رغم كل ما حققته من نجاح  
وتغيير، يرجع لها الفضل فيه، لا أحس بالسعادة، لا أحس بها  
أبداً.

أرفع الـ iPhone ويتوتر إبهامي فوق شاشته قليلاً، قبل أن  
أفتح الرسائل لأقرأ رسالتها التي استقبلتها أمس:

" لا أعرف من أين أبدأ رسالتي، لا أعرف حتى لماذا أبعث  
لك بها، كل ما أعرفه أنني ضعيفة للحد الذي أشعر معه  
بروحي تبرد وتبهت، كأنني كنت أستمد الحياة منك، أتعرف

لم أدعُ على أحد من قبل لكني دعوت عليك ثم سامحتك ثم  
دعوت عليك ثم سامحتك، ثم ماذا؟ لا أعرف ... لا أعرف أي  
شيء ... لا أخفيك سرّاً أنني طعنت خواطري عنك ألف مرة،  
لكنها لم تمُتْ ولا مرة، أدركتُ أخيراً أننا لا يمكن أن نقتل الحب  
بداخلنا، الحب حينما يولد يعيش حتى يشيخ ويموت وحده،  
الحب ينبض فينا حتى بعدما موت، أو يموت بداخلنا ونحن  
على قيد الحياة، لذلك ليس أمامي إلا أن أتهدجُ حبك، أن  
أراقص ذكرياتي عنك كل ليلة، وأسقط معها كل صباح".

\*\*\*



- وديت الفلوس فين يا نبيل؟

لا يكف "صلاح" عن تكرار سؤاله، أثناء زيارته لي في المستشفى، بعد محاولتي الفاشلة للانتحار، وأنا كما أنا صامت متجاهل .

- نبيل الشركة بتقع، وأنا مرتبط بمواعيد تسليم وعقود وشروط جزائية. اعقل أرجوك.

أتأمل ملامحه بأسى، سترته المكرمشة، شعره الكثيف المبعثر وكرافتته المفكوكة، تخليه عن أناقته بهذا الشكل يعني أنه مُرٌّ بأزمة حقيقية لكن ليس بوسعي أن أساعده، مستحيل أن أخبره بما فعلت.

- حضرتك متأكد من قرارك ده يا أستاذ نبيل

ألتقط اسمها، المحفور في المنشور الخشبي، الذي يتقدم سطح مكتبها "هنا سراج، جمعية بناء الطفل"، وأرد: أكيد يا مدام هناء .

- بس الفكرة دي غريبة شوية وتنفيذها صعب.

- علشان كده رصدت لها 20 مليون جنيه.

تندهش وتُعدّل من وضع نظارتها وتفرّ أوراق المشروع ثم التلقت إحداها لتقرأ منها :

"مشروع إنشاء مدرسة داخلية للأطفال" ...

الهدف : بناء شخصية الطفل، ممكن توضح أكثر ؟

- يعني المدرسة تبني انسان متصالح مع نفسه بيحب الحياة وخالي من العقد والضغوط النفسية، مش مهم يكون شاطر دراسيا أو رياضيا أو فنيا، المهم نمي عنده الحاجة الي بيحبها فعلا، مش المكره عليها.

تهزُّ رأسها متفهمة و تعود لتستكمل قراءة الشروط :

أن تكفل المدرسة إقامة ومصاريف أسرة الطفل بشرط أن تكون الأسرة بلا أب ، فقط أم وولد وحيد أو بنت وحيدة .  
مش شايف ان الشرط ده غريبة شوية؟

أرتبك ويخفق قلبي فجأة ، هل تعرف هذه السيدة شيئاً عني؟! أسارع بتبرير الموقف :

- طبيعي ان الأسر اللي ملهاش أب أو عائل تستحق المساعدة أكثر من غيرها؟ مش كده؟

تستكمل ، رغم انتباهها لارتباكها الواضح: أن تتولى الجمعية

إدارة العمل الخيري بشكل كامل مقابل تخصيص أجور ورواتب للموظفين من فوائد استثمار المبلغ. تسألني: بمعنى؟  
- يعني الرواتب والأجور تندفع من الفوائد، مش من أصل المبلغ.

تتوقف عن القراءة كأنها تدرس الموقف، تجمع الأوراق في الملف ثم تقول: طيب يا أستاذ نبيل أنا هعرض الفكرة على الشئون القانونية وهرد على حضرتك.

- ضروري ترد عليا النهارده ارجوك.

- هجتهد ان شاء الله وأول ما أوصل لقرار هبلغك.

- ممتاز، أول ما هتبلغيني بالموافقة، هاروح البنك أعمل ارتباط مالي ب20 مليون جنيه لصالح الجمعية.

- اتفقنا.

”رد عليا يا نبيل، بنيت القبر ليه؟ وحاولت تتحر ليه؟“ ...

أستفيق من ذكرياتي على صوت ”صلاح“ وهو يصرخ في وجهي، إصراري على السكوت ونظرتي الحائرة الزائغة يستفزانه كأشد ما يكون، أفتح فمي وقد قررت أن أبوح له بالسر، لكن دخول ”ريدا“ المفاجئ ينقذي: فيه ايه؟ بتزعق

كده ليه يا صلاح؟ انت مفيش فايدته فيك؟

يصرخ فيها: لو سمحتي يا ريديا متدخليش في شغلي.

- شغل ايه، نبيل تعبان وانت جاي تزعق له؟

يتشاجران بصوت عالٍ ثم يغادر ”صلاح“، تاركاً ”ريدا“ غارقة في دموعها، تهوي على الكرسي المجاور لي، بينما أحاول مساعدتها بمناولتها علبة المناديل التي بجواري، دموعها كانت دموع اليأس.

- مفيش فايدته فيه يا نبيل، انا خلاص تعبت منه، دايمًا عصبي ومنفعل مش قادره اتعامل معاه خلاص، استمرارنا مع بعض بقى شبه مستحيل.

بكلماتها تلك أفهم أن العلاقة بينهما قد تدهورت، كيف حدث هذا في هذا الوقت القصير؟

- كان نفسي يبقى زيك يا نبيل، يسمعي ويفهمني.

ذبولها وشحوبها يجعلاني أفهم معنىً جديداً في هذه الحياة، المرأة كالزهرة بالفعل تتفتح مع رجل وتذبل مع آخر، الرجل الحقيقي يجب أن يكون بستاني، فلا الشكل ولا الشخصية القوية ولا النجاح يكفون للحب، الحب يعيش

فقط بالحنان ، أن تسمع المرأة أن تفهمها ، أن تمنحها كتفك  
لتضع رأسها عليه.

\*\*\*

- 3 -  
أخرج من المستشفى بفشل جديد، لكن هذه المرة مع  
الموت ، أخرج غريباً عن نفسي كما عن الحياة، بداخلي إحساس  
وحشة مغايرٌ تماماً لما عاينته حينما تعرضت للحادث الأول،  
يشبه ذلك الإحساس الذي ينتاب المرء حينما ينام على سريره  
ثم يستيقظ ليجد نفسه وسط أرض قفر، لا يعرف ما الذي أتى  
به هنا ولا أيّ الاتجاهات يجب عليه أن يسلك ، يخشى حتى  
من أن يتحرك ، تركني "عبد اللطيف" هذه المرة بلامبالاة  
حقيقية، لم يلفظ ولا كلمة، فقط رماني بنظرة مليئة بالاحتقار،  
لكنني لم أهتم! كذلك رد فعل "صلاح" أذهلني، حافظ على  
سرية الأمر ولم يخبر أيّاً من معارفي بحقيقة ما جرى، لكنّ  
المريب هو أن "عبد اللطيف" أخفى عنه موضوع السرطان ،  
ألهدّه الدرجة هو رجل يفى بوعوده؟

يُمرُّ يومان باردان لي بالمنزل لا أرى فيهما أحداً ولا أسمع  
أحداً، حتى ملامحي لا أذكرها، أشغل نفسي بالوقوف أمام  
نافذة غرفتي أو الخروج لشرفتها للجلوس في البرد، من أجل  
استنشاق هواء الشتاء الذي اعتبره مُبرِّج الروح، كثيراً ما تثير  
رائحة الشتاء في نفسي غربة شديدة، أشعر معها كأنني طيرٌ  
مهاجر يركب رياح الشمال مسافراً صوبَ ينابيع الدفء، يعاند  
رغم أنه رأى رفقاء له يسقطون من قبل في شباك تشرين

العنيدة، زاده فارغ إلا من رغبة ملحة في الوصول وبتدريج  
خفقات وئيدة، ولا يدري هل حين يصل سيجد الثلج قد ذاب  
الزهر وجمد الحب؟ أم ستفتح له الروابي الخضراء ذراعيها،  
لكنه يثق في أن الهجرة قدره، الرحيل دائماً قدر الغرباء.

في الثامنة من مساء اليوم الثالث، وبينما أنا جالس أمام  
المدفأة، أهيم في عزف مقطوعة "cold" لجورج مانديز،  
والكمان تسكب شجنها على مشاعري كعطر كثيب، إذ  
أسمع صوت جرس الفيلا، وألمح "كامل" يفتح فيدخل آخر  
إنسان أتوقع حضوره في هذه اللحظة، الدكتور "ريماس".

يتصلب القوس فوق الوتر، كأنه يندهش، بينما يُضفيها  
"كامل" وتطلب منه إعداد قهوة بالبندق وهي تقترب مني،  
تحييني وتجلس بالمقعد المقابل لي وتعترض بابتسامة بسيطة:

- بطلت عزف ليه؟ هو حضوري طرد الالهام.

أرتبك باحثاً عن رد يُعفيني من الحرج فأقول:

- لا طبعاً بس خير في حاجة جدت بخصوص حالتي؟

تبتسم وتقول:

- لا متقلقش انا مش جايه المرة دي بصفتي طبيعية.

أتأملها كأنني أراها لأول مرة، في ملامحها ابتسامة دهشة  
مثيرة، حاجباها مقوسان مرفوعان عن عينها، وزاويتا شفيتها  
معهوفتان لأعلى قليلاً، تبدو مبتسمة دائماً حتى إن لم تكن  
كذلك، أندهش حينما أراها تفك حاجباها وتطلق شعرها  
الأسود الناعم على حريته فينفلت ملتقاً حول عنقها الطويل،  
وبالطبع تقرأ ذلك في قسَماتي لكنها بدلاً من أن تمنحني تفسيراً  
مريحاً، تسألني سؤالاً عجيبياً:

- ايه رأيك فيا بقى؟

أتوترُّ مع سؤالها المُدهش، وأسأل:

- من ناحية ايه؟

- شكلي .. شخصيتي .. كده؟

أستحي من السؤال لكني لا أجدُ مهرياً من إجابتها:

- انت مهذبة جميلة و..

- تتجوزني؟

لا تكادُ تلفظها إلا وأحفظُ متعجباً، الحوار سار على وتيرة  
صاعقة، أنفاسي أخذت في التلاحق بشكل جعل من التقاطها  
أمراً شاقاً.

- إيه مش عاجباك؟

- لا بس مش فاهم ...

- مش فاهم ايه؟ آه قصدك علشان يعني أنا اللي جيتلك  
وعرضت نفسي عليك.

أمسح عرقاً لا أدري كيف نشع من جبهتي في هذا البرد  
وأردُّ :

- لا بس أحنا مفيش بينا أي علاقة تخيلنا نقرب من بعض  
لدرجة دي.

- بيتيهء لك، أنا اعرفك من زمان قوي، حضرت لك كثير في  
الساقية ومتابعة عزفك كويس، ولو فتحت صفحة "مقامات"  
على الفيس هتلاقيني عامله اعجاب ومشاركة لكل اللقطات  
والمقطوعات اللي فيها عزفك الصولو، كمانجتك بتسحرني  
لدرجة اني مسجله كل مقطوعاتك على فلاش ميموري وبشغلها  
على طول في العربية.

أفهم من كلامها سر اهتمامها بي أثناء فترة مرضي فأعود  
لأواجه معها حقيقة موقفي : بس انا هموت؟

تعدتل مائلة بجذعها نحوي وعلى ملامحها يرتسم الاهتمام،  
رغم لمحة الابتسامة المريحة للنفس التي تملكها :

- هتموت امتي؟

- قريب؟

- أيوه امتي؟

- مش عارف بالظبط لكن بعد أيام.

- طالما مش عارف يبقى المطلوب منك تفكر في اللي تعرفه،  
اكر في الحياة.

- أنا رهن الموت، الحياة بعيدة عني جدا.

- هي ايه الحياة بالنسبة لك؟ السنين والشهور والأيام  
والساعات؟ الأوقات يا نبيل ملهاش أي قيمة لو انت انسان  
معذب، بالعكس لحظة سعادة واحدة ممكن تفضل في  
ذاكرتك أكثر من عمر كامل من الوجد.

- بس الوجد بيعلم جوانا اكر.

- احنا اللي بنسمله بكده، اختياراتنا هي اللي بتخلينا  
نتوجع، علشان كده حياتنا كلها ممكن تتغير باختيار جديد.

تعجبني نبرتها وأستمح معنى الكلام لكني لا أقتنع بما  
تقول، ما ذنب شابة مثلها أن تحمل لقب أرملة في أقل من  
شهر؟ كما أنَّ هناك شيئاً مريباً لا أفهمه بشأنها: أي مصادفة

يتم زفافنا في ثمانية وأربعين ساعة فقط ، وأول ما تطلبه  
نفسى "ريماس" هو أن تنتقل للعيش بالمرربط ، وهناك حيث  
الكوخ والمدفأة والخضرة والسماء المفتوحة والمطر، أدخل جنه  
الخلد.

- أنا بحب المطر قوي يا نبيل ، نفسي تبوسني تحت المطر.

- أبوسك قدام الخيول والعمال؟

- قدام العالم كله.

الحياة بالمرربط شاعريّة بصورة أروع ممّا أتصور، والأيام تُمرُّ  
سريعاً، أسرع كثيراً من المعتاد ، لم تمنعني قدمي المكسورة عن  
الحركة، أو أشعر بسببها بأي عجز على الإطلاق، روح "ريماس"  
المنطلقة لا تكفُّ عن نثر البهجة من حولي، كأنها أقحوانة  
ربيعية، أو عطر أثريّ يصاحبني أينما ذهبت، يمكن أن  
توصف كترياق للبهجة ، ابتسامتها رقصة حاملة على موسيقى  
الفالس، وعناق عينيها السوداوين لعينيّ الخضراوين تعويذة  
سحر حلال ، حينما قَبِلْتُ بشفتيّ الفائحتين بالقهوة الفرنسية  
شفتيها المصبوغتين بالشوكولاتة ذقتُ نشوة لم أذق مثلها في  
حياتي، تفاصيلها توقد في نفسي كل مفردات الرجولة، إحساسي  
بها ممتع وغامض، كأنني أنساب داخل روح أخرى، كأنني في

تلك التي قد تجمع بين كونها أحد معجباتي وبذات الوقت  
طبيبي المعالجة؟! وبذكاءٍ يتقدُّ في عينيها اللامعتين المرأ  
حيرتي فتجلي لي الغموض الذي يكتنف الحكاية برُمّتها:

- أنا عارفه اللي بيدور جواك وعموما انا اسمي بالكامل  
ريماس عبد اللطيف الكردي.

اسمها يفسّر كل شيء، إذن هي ابنة الدكتور "عبد  
اللطيف" ، دموعها وقت إعلانه عن مصيري لم تكن دموع  
طبيبة متعاطفة مع مريضها البائس، بل نزيف امرأة يموت  
أمامها الرجل الذي تحبه ، لكن هل يملك الحب إحياء الموتى؟

تُجيب الأيام الثلاثة التالية عن ذلك، تتعدّد مقابلاتنا  
وزياراتها وتصارحني خلالها بحبها على استحياء ، رغم غرابة  
الأمر أن تطلب منك فتاة الزواج منها قبل أن تعلن لك عن  
حبها، واقع مقلوب لكنه أعجبنني.

\*\*\*

بشدة قائلة:

- بالعكس انت موهوب جدا، ثم تقترح: انا عندي فكرة،  
إيه رأيك تعمل لحن لحياتك؟

- مش فاهم!

- يعني تعمل نوته تعبر عن ذكرياتك، لو ذكرى جميلة  
تبقى نغمة صول غليظ مثلا أو ري حاد، ذكرى عادية ري  
اعتيادي، ذكرى مبهجة ري ناعم وكده.

تُبرِّد فكرتها بداخلي آلاف المصاييح، بل تتوهج كشمس  
نيسان، إنها عبقرية بحق، لماذا لا أسجل لحظات حياتي في  
شكل نوتة موسيقية؟ أستجيب لها بشغف فأحضر كراس  
الموسيقى والأقلام، وأبدأ في استدعاء ذكرياتي حُلُوها بمرها،  
أدوّن السلام الموسيقية والعلامات، أصلح وأعدل، بينما هي  
بجانبي تدعمني، كتبتُ أغلب اللحن ونحن جالسان أمام  
المدفأة متدثرين بغطاء واحد، وممتزجين في روح واحدة،  
يبلى صوت المطر بالخارج حكايتنا بطراوة العشق.

ثلاثُ ليالٍ تمر كأمّتع ما تكون الحياة، وتنقضي بأن  
أضع علامة الـ"ري" الأخيرة وأتوقف، تتلاقى أعيننا لحظتها  
فتعانقني وتقول:

حالة عناق دائم لا يتوقف، وضمة دافئة في ليلة شتوية باردة  
- نبيل انت لازم تنجح، لازم تحقق حلمك وتهزم كل الفشل  
اللي حاصرک في حياتك.

- أنا مش موهوب يا ريماس، وفي كل الأحوال مش هلهق!  
وحتى لو لحقت، إيه أصلا فائدة نجاحي وانا ميت؟  
أقولها بابتسامة تحمل مرارة، فتمسكني من ذراعي  
وتشجعني:

- أنت موهوب وأنا متأكد انك هتقدر تنجح في الحاجة  
اللي بتحبها.

- قصدك الكمان؟

- بالطبع، أنا عايزاك تفهمني فكرة عمل الكمان.

أحضر الكمان الشرقي وأشرح لها كيف أنّ لها أربعة أوتار،  
تصدر نغمتين أساسيتين، صول و ري، تصدران أربع طبقات،  
صول غليظاً وري اعتيادياً، وصول رفيعاً، وري رفيعاً حاداً،  
أربعة أوتار لم تنجح ألحانها في محو أثر أربعة أصابع دائماً ما  
وشمت وجهي بالفشل مع كل صفة من صفعات أبي، أما  
فشلي الخامس، الحب، فقد أزاله حُبُّها لي، كما أنبهها أيضاً  
إلى أنني لست مبدعاً بل مجرد مقلد، إنما لا تقتنع تعارضني

- مبروك يا حبيبي، هتسمي اللحن ايه؟

أفكر ثم أجب بشكل عفوي: هسميه "قبل الرحيل".  
ولأول مرة تبكي، تضع كامل رأسي في حضنها فتنهار  
وترتجف.

- ربنا يخليك ليا وميحرمنيش منك أبدا يا حبيبي.

أعزف لها اللحن بالكمان مرة والبيانو مرة، فيخرج كنبياً  
حزيناً في بدايته ثم سرعان ما يصطبخ كموج البحر قبل أن  
يتهادى كنسمة حانية تداعب خدّها، أنتبه أن نغماته تثير في  
النفس خليطاً مدهشاً من العواطف الإنسانية، حينما أرى  
خدّها يتلون مع الإيقاع من شدة تأثرها به.

يُذهلها جمالُ اللحن ورقته وعذوبته، تقسم لي أنه  
رهيب وأنها لا تجاملني، وتصمم أن ترفعه بنفسها  
على Soundcloud وتجتهد في مشاركته على مواقع التواصل  
الاجتماعي، وخلافاً لكل التوقعات ينتشر اللحن بصورة غير  
مبسوقة، يتفشى في الشوارع وبين الشباب يتردد من سماعات  
الرأس وعبر الحاسبات والأجهزة الذكية، ينساب إلى القلوب  
قبل الأذان، ثلاث دقائق وخمس ثوانٍ فقط تحقق في أيام  
مائتي ألف متابعة، يحتشد المتابعون على حسابي في تويتر  
وأحقق نجاحاً مبهرراً، الكل يثيرة الفضول لسماع مقطوعة

العازف الذي سجل حياته في نوتة موسيقية، رأيت فتاة تبكي  
في بدايته وتتوتر في منتصفه ثم تبترسم ودمعتها لازالت لم  
تجف في نهايته، إعجازٌ موسيقيٌّ مثير للمشاعر كما قالت  
"ريدا" وهي تهنئني عليه في التليفون، على غير ملحوظة  
من "ريماس" التي كانت تعلم جيداً أنّ هناك نبضة في قلبي  
لا تمتزج بنبضاتها، نبضة لا معنى لها إلا أنّ هناك من تشاركها  
فدراً من مشاعري، حتى وإن كان ضئيلاً وبالطبع لا يحتاج  
الأمر لذكاء أن تفهم أنها ريديا؟

لكنّ كل هذا النجاح وهذه السعادة تنتهي حينما يحين  
موعد الموت، وأسمع أجراسه تدق فوق أرقام رزنامة التقويم،  
بقي من الزمن يومان فقط ... ثمانية وأربعون ساعة.

\*\*\*



الحبُّ يغير طعم الأشياء، فحتى لو كنا على شفا الموت،  
يمنحنا بهجة استقبال الرحيل، لا شك أن فقدان من نحب  
يكون قاسياً، لكنَّ يقيننا بأنَّ هناك من سيوافينا إلى الضفة  
الأخرى من الوجود، يمنحنا قنابيلَ من أملٍ ينادي باللقاء. كلُّنا  
سرحل في النهاية، المهم أن تتعارف أرواحنا وسط ضياع أعصى  
من أن تحدَّ المصادفات.

أموتُ غداً، تلك هي آخر النهايات التي ترفض أن تسلّم  
لواقعي المهزوم، لكنني سأجبرها على رغبة مني هذه المرة،  
قررت أن أنفض كل علائق الذكرى المتشبهة بثوب حكايتي،  
قبل أن تخط سطرها الأخير، قررت أن أعرف محتوى الوديعة.

أدخل HSBC فتستقبلني "نرمين" ببشاشتها المعتادة،  
تعرفَّت عليها أكثر في فترة مرضي، زارتنى عدة مرات في  
المستشفى ونشأت بيننا صداقة هادئة راقية، كذلك حضرت  
عقد قرّاني على "رماس".

تندesh حينما أطلب منها فتح الوديعة :

- أخيراً قررت؟

أبتسم وأومئُ لها برأسي : أن نعم ، فتعاونني على إنهاء

الإجراءات، ثم تقودني إلى مستودع الخزانات، تدس المفتاح  
في خزانتي الخاصة، وتنسحب لتغادر في خطوات رصينة،  
تتركني لأواجه الوديعة مرتعشاً كالجرّو المبتلِّ، ما الذي تركته  
لي أيها الرجل القاسي؟ أتمنى من كل قلبي أن تُقيم ما كسرته  
من أركاني قبل أن يتولى الموت هدمها من جديد، على الأقل  
سأغادر هذا العالم من دون مُضغة الكراهية التي تخثرت في  
قلبي تجاهك.

أدير المفتاح وأفتح باب الخزانة الصغيرة، أسحب صندوقها  
الثقيل وأحمله لأضعه على الطاولة الممدودة في وسط  
المستودع، أكشف عنها الغطاء في بطء متوجساً ، ولا أصدق  
ما أراه ، يصعقني المحتوى لدرجة أن أنتفض، لا أتصور أنه قد  
ترك لي هذا الشيء بالتحديد، المسدس "الجلوك" ومعه ورقة  
مطوية ، تتدافع دقات قلبي فأشعر به يتضارب بين أضلعي  
كأنه مطرقة طائشة، أحمل المسدس بيد مرتعشة وعينين  
متصلبتين من الذعر، ففي تلك القطعة الصغيرة تسكن أبشع  
ذكرياتي.

- ركز في الشاخص يا نبيل.

يقولها أبي فيما يحرك ذراعي الأيمن القابض على الطبنجة  
إلى اليمين قليلاً ، ويطبق أصابع يدي اليسرى فوق اليمنى

- اكنم نفسك واضرب أسفل منتصف الهدف.

أطاوعه وأفعل ما يريد فتنتلق الرصاصة بدوي هائل  
وأندفع للخلف، لكنني لا أصيب الهدف، ينخلع كتفي فيؤلمني  
وأشاهد الاستياء يلوح على وجهه، وهو يعنفني .

- هو انت مفيش فايدة فيك؟

وقتها كنتُ في الرابعة عشر وكنت أشعر بضياح كبير، موت  
أمي كان بمثابة فقدان شامل للأمان، لم أكن أحس بأي استقرار  
نفسى أو ارتياح من أي نوع، دائماً خائف ومضطرب، أتردد قبل  
أن أفعل أي شيء مهما كان بسيطاً وعادياً، خوفاً من رد فعل  
أبي العنيف، وكان منسوب الاستقرار في شخصيتي اضمحل إلى  
حدّه الأدنى، فصارت مثل لجة رقيقة، مجرد هبوب خفيف  
لنسمة رقيقة كفيفاً بأن يبعثر استقرارها النفسى .

لكنّ أبي - وكعادته - لم يقبل بفشلي، هو لم يكن يستسلم.

يعود فيصطحبني إلى ميدان الرماية بالمرط مرة أخرى،  
يجتهد في تدريبي يرثيماً يراني أتحمس قليلاً، على الأقل أستطيع  
إصابة جزء من الشاخص، حتى وإن كان على هامش البقعة  
السوداء.

يقرر بعدها تدريبي على التعامل مع السلاح، فگه،  
تركيبه، تنظيفه، بالإضافة لإخراجه من جيبي بشكل مدروس  
وخاطف للدفاع عن نفسي ضد أي اعتداء مفاجئ، وفي  
صبيحة يوم بارد، يقتادني من ذراعي إلى الورشة المبنية على  
هيئة عنبر من الصاج، مقام على مسافة خمسمائة متراً تقريباً  
من الكوخ، ندخلها فإذا بها متخمة بالعدد والأدوات الحديدية  
الغليظة، مناشير ومطارق وقطاعات وحفارات بمختلف الأنواع  
والمقاسات، يشغلني انهماك العمال في إصلاح جرّار زراعي  
عند باب العنبر الخلفى، كيف يشحموه ويجربونه وعلوون  
فنتاسه بالسولار، وكيف تصعد منه رائحة مثيرة للغثيان،  
هي خليط بين الزيت والشحم والسولار، أتساءل: ما الذي  
يدفعهم للقبول بهذا العمل المقرّف؟ ربما هم فقراء!

نصل إلى طاولة خشبية خشنة تقف على أربعة أرجل في  
المنتصف تماماً من العنبر، تحتها ينحني أبي ويسحب صندوقاً  
خشبياً ثقيلاً، ألحظ على أضلعه حروفاً إنجليزية متناثرة تشكل  
أسماءً عدّة لدول أجنبية، يبدأ في فك مُفصلات الحديدية  
ثم يستخرج منه قطعة سلاح صغيرة، ترقد وسط العديد من  
القطع الأخرى الأكبر، يزرعها أمامي على الطاولة بعنف يحدث  
دويّاً، ويحذرني مشيراً بإصبعه:

- انا مش دايم لك، وانت غني ولوحدك وده هيطمع فيك.

الناس، علشان كده لازم تتعلم ازاى تحمي نفسك، فاهم؟

- بس احنا عندنا حرس.

لا أكادُ أقولها إلا ويشتعَل غضبُه، أرى في عينيه الاحمرار والجحوظ وهو يجزّز على أسنانه، ويقرّع عني بصوت أقرب للضحك :

- انت عايز تعيش طول عمرك معتمد على غيرك؟

أنكمش وأطرق برأسي محاولاً حبسَ دمعة انكسار تتكوّن حول حوافّ عيني، حينها يرفع رأسي براحته مشيراً للسلاح :

- بص هنا، ده سلاح جلك 9 مم مُساوي موديل 22، هاعلمك ازاى تفكه وتركبه، ركز معايا في كل كلمة هقولها، علشان هسألك لما أخلص، وإياك متعرفش تجاوب أو تغلط، فاهم.

أوميّ له برأسي واجماً، بينما يبدأ في الشرح، يشير بأصبعه إلى اليد ويقول: دي القبضة اللي فيها خزنة المسدس، وبيتقال عليه مسكه برده، ودي السباطه اللي هي الماسورة والسِنّ اللي فوقها ده سن مُلّة الدبانة، وينقل إصبعه إلى الأجزاء ويقول: وده المشط. فاهمني؟

- فاهم.

- أول حاجه هنخلع الخزنة اللي فيها الخرطوش.

يفك قفلها الصغير، ويسحبها للأسفل، ثم يضعها على الطاولة ويستكمل:

- بعد كده هنتأكد ان مفيش خرطوشه بايته في السبطانة.

يشدّ الأجزاء للخلف والأمام سريعاً فتصدر حَكّة معدنيّة عنيقة، وتنفّر منها طلقة تتدحرج على الطاولة لتسقط بعيداً، يتجاهلها ويحذرنّي بصوت أجشّ، ونظرة حادة :

- الخرطوشه اللي في السبطانة دي أخطر حاجه، لازم تتأكد إن المسدس فاضي، مركز معايا؟

- آه.

- بعد كده نعلق الزناد.

يعيد الزناد للخلف حتى يثبّت على وضعه، يفتح قفل التفكيك الصغير عند زاوية اليد، قبل أن يسحب أجزاء السلاح بسببته وإبهامه للخلف قليلاً ثم للأمام بقوة فينخلع المشط تماماً من القبضة، يمسك المسدس، بعد أن صار قطعتين منفصلتين، على راحتيه ويعرضهما لي :

- كده طلعتنا المشط بره، وقلب المسدس بقى مكشوف

قدامنا، هعملها قدامك تاني.

يركبهما ويعيد الكرة، ثم ينتقل للمرحلة التالية، يفرغ  
السوستة والماسورة فتصير كل قطعة من المسدس على حدة،  
يفرد القطع على الطاولة من أمامي ويقول:

- كده المسدس اتفكك كله، ركز بقى معايا ازاى هنركبه،  
عملية عكسية تماماً، خطوة بخطوة، اللي انتهينا بيه هنبدأ  
ببیه.

يُعيد كل شيء إلى سيرته الأولى، يُرْكَب الماسورة والسوستة،  
يعشق المشط في مجراه ويسحبه للخلف سريعاً ليتشبث  
بمكانه، يحزر الزناد، ثم يعيد الخزانة إلى مكانها، ويطبق  
براحته على قاعدها لتبيت داخل القبضة تماماً، تثبت فيلقم  
الماسورة بخرطوشة جديدة، يستخرجها من علبة تشبه علب  
الثقاب الكبيرة، ويقول:

- انت فهمت انا عملت ايه؟

أجيبه متعجلاً: آه

- طيب قولي أنا عملت ايه.

- عملت العكس.

وأسمع له ما أحفظه ممَّا رأيته يفعله فيومي لي برأسه  
كنايةً عن الرضا، قبل أن يمسك بكفي السمين ويضع السلاح  
في بطن راحتي .

- طيب فكك السلاح بنفسك.

أبادل النظر بينه وبين السلاح المستقر في كفي، فينتبه  
لنظري الزائغة المضطربة، فيحذرنى:

- ركز وفوق لنفسك، امسك السلاح كويس.

أبرق عيني لأثبت له أنني منتبه وأنفذ، أفتح قفل الخزانة،  
أنزعها بارتباك، فيعزز فعلتي: كويس شاطر كمل .

أستشعر انقباضاً شديداً في أوعيتي الدموية، كأن شيئاً ما  
يُهَيِّج جهازي العصبي، أتأهب فأضع سباتي على الزناد لتثبته  
للخلف، لكنّه يستوقفني بكفه صارخاً:

- استنى.

أفهم أنّ ثمة خطأ فيما أفعله، لكن بعد فوات الأوان، يواصل  
إصبعي الخائف تشبثه بالزناد ويتراجع مُطلقاً الرصاص، ينفجر  
الدم أمام عيني فيستحيل العالم كله إلى بقعة حمراء لزجة،  
تلطخ سطحاً زجاجياً، ما هو إلا عدسة عيني، أبصر من خلف  
الأحمر القاني العمّال ظلالاً سوداء تُهرع إلينا وأراهم يحملون

أبي ويجرون به بعيداً، يذوبون جميعاً في الدم وأنا متصلب  
في مكاني مشدوهاً.

يُشَلُّ كَفَّهُ الأيمن.

تنفذ الرصاصة الطائشة منه، فتكسر عظامه وتقطع  
شعيرات عصب Median، فلا تنجح العمليات الجراحية لي  
وصل أطرافها لدقتها الشديدة.

وبالطبع لم يكن الأمر سهلاً، الشلل بالنسبة لرجل اعتاد أن  
يفعل كل شيء بيديه لا يختلف كثيراً عن الموت.

أمرٌ بحالة نفسية ترعبني، أعيش فترة كئيبة يسيطر عليّ  
فيها هاجسٌ مخيف، أنه يتربص بي، ويتحين الفرصة المناسبة  
لإيذائي، أعاني ليلالٍ طويلة من الأرق خوفاً أن يهاجمني أو  
يقتلني، لكنه لا يفعل، بل أفاجأ به يتدرب على استخدام يده  
اليسرى في كل شيء، يأكل بها، يشرب بها، يلعب كرة المضرب،  
يُصلح الأشياء التالفة بالمنزل، لدرجة أن أراه - قبل أن أتم  
السادسة عشر- يرسم شكلاً دقيقاً بأقلام التحبير الرايبدو  
لجهاز طبي يُستخدَم في علاج الخيول، ويظله بمنتهى المهارة.

لحظتها فقط تبدأ الألوان في صبغ أسود حياتي، قليلاً.

أنخلع من ذكرياتي عن السلاح كمسمار اقتلعتة كماشة،

أمدُ يدي فألتقط الورقة المطوية وأفردها لأقرأها :

- "الوقت اللي هتفتح فيه الوديعه هكون في ذمة الله، أنا  
عارف انك بتكرهني، وأنك عمرك ما هتفهم اني كنت بعمل  
كل ده علشان مصلحتك، وعارف ان كل محاولاتي معاك في  
حياتي فشلت، علشان كده هحاول اصلحك لحظة موتي، وبعد  
موتي، مش هيبأس حتى وأنا ميت.

الفرس "كحيل" عجَزَ ومرض، كل يوم ييمر عليه بيتألم أكثر  
من اللي قبله، حلّه الوحيد إنك ترحمه وتتهي حياته، وبنفس  
المسدس اللي صبتني بيه زمان، فأكر المسدس ده؟ هي دي  
الطريقة الوحيدة اللي هتخلصك من كل مركباتك النفسية،  
الوقت اللي هتقتل فيه الفرس هتوصلك كل الصور ومقاطع  
الفيديو اللي فيها ذكرياتك مع أمك واللي كنت برفض اخليك  
تشوفها علشان شخصيتك تستقل، لكن لو أتأخرت في فتح  
الوديعه والفرس مات، أو مقدرتش تنفذ وصيتي دي لضعف  
في نفسك أو كراهية منك ليا، الملفات دي مش هتوصلك أبداً،  
وهكون فشلت في اصلاحك للأبد".

تنتهي الرسالة فأفرمها بين قبضتي وأعصر قبضة المسدس ،  
صدري يصعد ويهبط من التوتر، أرفض أن أطيحه أكره سطوته  
وصلفه، وبذات الوقت أشتاق لرؤية مقاطعي القديمة مع

أمي، بالأخير يهزمني الشغف وتهزمني دفقات الحنين، أدُس  
المسدس في ظهري، بين القميص والبنطال، وأستره بالجاكيت  
وأغادر فوراً إلى المربط.

- العمر المديد ليك يا أستاذ نبيل الفرس مات من يجي  
سنة.

يصدمني عم "سلامة" بالخبر وأنا أفأف أمامه في حظيرة  
البوكسات، كأنه يلكنني، أسافر في ملايحه المتشقة القديمة  
كالثائه، أفهم أنه يستشعر معاناتي لكنه يحتار فيما يجب عليه  
أن يقول، يُؤثر الصمت حتى يترك لي الفرصة للتفكير.

أعودُ وأسأله بصوتٍ مختنق:

- طيب مفيش فرس تاني عجز وبيتوجع من المرض؟

يشيح بذراعه بعيداً ناحية الميدان ويطمئنني:

- الخيول كلها بخير والحمد لله وبترمح زي الرهوان في  
الميدان اطمئن على الخيل يا أستاذ "نبيل" أنا حافظ وصية  
الغالي، ومخلي بالي منهم، هو الأستاذ صلاح مش بيبليغ حضرتك  
ولا إيه؟ ده احنا لسه مطلعين شهادة نسب للمُهر بطران من  
كام يوم؟!

لا يعنيني كل ما يقوله، ينطفئ صوته من مسامعي كأنَّ

أفكاري تتنصل منه، فقط أفكر كيف أنفذ تلك الوصية وكيف  
يمكن أن أصل إلى الملقات، لا بد أنه قد تركها مع أحد من  
معارفنا المقربين، لو كان كذلك فسيكون من السهل الوصول  
لها فهم قليلون، أبي خسر الكثير من أصدقائه بسبب تزمته  
واهتمامه بدقة المواعيد وكراهيته لكلمة "معلش".

أصرف "سلامة" بهدوء لا يعكس التوتر الذي يمور بداخلي،  
فيطيعني وينصرف من الحظيرة إلى ناحية الميدان، أسمع  
صيحاته وصفيره المعتاد للخيول، فأتبعه إلى الخارج، حيث  
الهواء الطلق والمروج الزاهية والسماء المفتوحة، أتصل بصلاح:

- الو ... ازيك يا صلاح ... الوالد ما سابش معاك حاجة ليا

وطلب منك تدديها لي بعد ما يموت؟

- ايه الكلام الغريب ده يا نبيل؟

- طيب مطلبش منك أي حاجة تانية؟

- كل اللي طلبه مني أي احجز لك عند الدكتور عبد  
اللطيف كل سنة علشان يعملك تحليل شامل، كان عارف إنك  
بتسمع كلامي وبتثق فيا.

- يعني مجبش سيرة الفرس "كحيل" خالص؟

- كحيل!!!

وقها، مشاهدة ذكرياتنا من بعيد تمنحنا السيطرة عليها دون أن نغرق في سطوة التفاصيل، التفاصيل دائماً ما تجرُّنا إلى دوامات الوجد، تسقيننا من لُججها لنعطش أكثر ونتجرع أكثر فنخضع لها أكثر وأكثر.

”كذبك حلو، يا أول كذبة صدقتها في حياتي، كذبك حلو يا أحلى كذبة واخترتها بذاتي“ ...

تنزعني نغمة اتصال ”ريماس“ من أفكاري، لازلْتُ لا أدري لماذا تحب أغنية ميادة بليسيس تلك ، أتمالك أعصابي وأرد :

- ازيك يا حبيبتي.

- ازاي يا حبيبي، انت فين؟

- أنا خارج من عند د نسرين.

- خير؟

- كنت بزورها.

- طيب انا كنت قلقانه عليك لأنك مقولتليش انت رايح

فين، كنت فاكراك في المرابط .

المرابط .. نعم ، كل دهاليز ذاكرتي تُفضي إليه ، تسطع في

ذهني ومضة خاطفة عن غرفته الخاصّة في الكوخ وكيف كان

بدا أنه لا يعرف عن أي شيء أتحدث، ما يعني أن أبدأ لم يترك الفيديوها والصور عنده ، فأين تركها إذن ؟ أكاد أجبنُ وأنا أمشي في المرابط ، ترافقني أصوات حواقر الجباد وهي تركض بانطلاق في باحة الميدان الواسعة، بداخلي حالة فوران مخلوطة بغمّ ، حتى مجرد التفكير يعذبني، لكنني رغم ذلك أصل إلى قرار سريع فأستقلُّ سيارتي متجهاً إلى عيادة الدكتور ”جلال“، أستحلفه بكل غالٍ عنده أن يخبرني بمكان تلك الأغراض لكن ردّه يأتي مُحبطاً:

- يا نبيل يا ابني ان لو حاجه زي دي عندي كنت هديها لك فوراً، هخببها ليه؟

بائسًا وحرزينا أتركه لأذهب إلى الدكتور ”نسرين“، إمّا تنفي هي الأخرى معرفتها بمكان الملقّات :

- انا حاولت مع مصطفى كثير انه يديني الحاجات دي وكان دايمًا بيرفض، أخر مرة قالي انه حرقها.

نتتابني حالة يأس وشعور قاتل بالهزيمة ، طرقتُ كل السبل

والم أصل لشيء، ليست عند أي من أصدقائه أو معارفنا فأين

توجد؟ أجرى وسط مرّات ذاكرتي المحفوفة بالأشواك ، لعليّ

أصلُ إلى إجابة ، لكنني أجدها مثل متاهة معقدة ، اكتشفها

يستغل عليّ أكثر كلما أوغلتُ أكثر، الحل الوحيد هو أن أحلّق

أشدُّ أجزاء المسدس بعنف و غضب، ومن أمام عيني ينفلت من بيت الماسورة آخرُ شيء أتوقعه، شريحة ذاكرة USB صغيرة، تطير في الهواء حرة مندفعة، أشخص ببصري مُتابعاً مسارها كأنه مشهد يُعْرَضُ بالبطيء، تسقط على المكتب متقافزة فوق سطحه لثوانٍ وبالأخير تقع على الأرض، أزحف تحت المكتب لألتقطها وأمتلكها في راحتي.

يا الله!! ترك لي الشريحة في ذات المكان الذي تسبَّب في شلل يده، كأنه كان يطلب مني أن أتخذ القرار! فقط أتخذ القرار! تصرف ماكر من ذئب كبير.

ألتقط أنفاسي وأنحي تفكيري عنه جانباً، وأركض بالشريحة إلى سيارتي، أدسها في "Apple mac" لأستعرض محتوياتها، ينبثق برنامج الـ QuickTime "مُحتفياً بالمحتوى بين أحضان إيطاره، ينتقى لقطه تغترف من الحزن وجعاً، أظهر فيها فتى صغيراً لم أكمل عامي العاشر بعد، أجري متخطباً على أرض المرابط الخضراء الواسعة داخل مشهد متأرجح للكاميرا، ومن خلفي أُمي تطاردني بينما صدى ضحكاتنا السعيدة يتردد عالياً، أنهار حينما أراها، تغالبي أحزاني فتصرعني وأبكي، أبكي حتى يلتقي سيل دموعي بانسراح ابتسامتي، أظنُّ أننا خلقنا من الماء كي نتعلم البكاء، لذلك نشعر بالحنين للمطر والبحر، فهما يهيمسان بالشجن داخل قرارنا المكين.

حريصاً على تأمينها، كان يضع لها كاميرا مراقبة خاصة فوق الباب، لأبُدُّ أنها مستودعُ هامٍّ لأشياءه الخاصة، أنهى المكالمة وأعود إلى المرابط سريعاً فأقتحمها، أندھش حينما أجدُها مرتبة أنيقة كأنه لازال يعتني بها، أي رجل كان؟ أشرع في التفتيش في الخزانات والدواليب بعث وفوضى كبيرة، لكنني لا أجد شيئاً، أزداد عصبية، فأجلب مطفاة الحريق وأكسر خزانة المكتب، أعثر على كاميرا الفيديو اليدوية الصغيرة بداخله، يرقص قلبي طرباً لمرأها، ألتقطها وأفتح منفذ شريحة الذاكرة سريعاً، لكن يخيب أُملي حينما أجدُه فارغاً لا شيء به، أضغط زرَّ باب الكاميرا فينفرج بانسيابية، وأيضاً لا أجدُ به الشريط الصغير، لا شيء بالكاميرا، لا شيء البتة.

يشتعل الغضب بداخلي حتى تنفلت أعصابي تماماً، هذا الرجل لم يكن إنساناً بل شيطاناً حقيقياً، أنتزع السلاح من ظهري وأصوبه إلى صورته الصغيرة، المُعلَّقة في منتصف جدار الغرفة الخشبية، وبنفسي مُغطاةً وأصابع متوترة أضغط الزناد، لكن الرصاصة لا تنطلق، أضغط بمنتهى القوة ولا تنطلق، هذا السلاح الغبي يَأبَى أن يستجيب كأنه يتعاطف مع سيد قديم امتلكه ذات قسوة، أنفضه في يدي وأفضَّ الخزانة فأتلقي مفاجأة جديدة، الخزانة خالية من الخرطوش، ليس بها ولا طلقة واحدة، كيف كان يتوقع أن أنهى حياة الفرس إذن؟



تتوالى اللقطات غيرَ منتظمة ولا مرتبة ، فيثقل الأمل ويتكاثر الحزن ، تتحول عضلة قلبي إلى إسفنجة رهيبة ، تشرب من عصارَةِ الوجود دون أن تشبع ، إلى أن يأتيني الملف السابغ بمفاجأة غريبة ، يظهر أبي في سرير موته ملتقاً بملابس ثقيلة ، على اليمين منه يجلس الدكتور "عبد اللطيف" وعلى اليسار يجلس الدكتور "جلال"؛ أعتدل وقد جدّب ما يحدث انتباهي، إذن أبي يعرف الدكتور "عبد اللطيف" عن قرب ، أظن أن هذا يفسر الكثير، أرفع من درجة صوت الملف ، وأبدأ في تَسْمَعُ الحوار :

- أنا مش هشتك في الموضوع ده يا مصطفى.

- ده الحل الوحيد اللي قدامي يا جلال ، عندك حل تاني؟  
يتدخل الدكتور "عبد اللطيف" : وانت ضامن رد فعل الولد يا مصطفى؟

- ابني مش مقدر قيمة الحياة وده الحل الوحيد قدامنا .  
يعترض "جلال" : يا مصطفى نبيل حاول ينتحر قبل كده انت ناسي ولا ايه؟ افرض عملها تاني؟

- اللي بيبقى فاضله من الحياة أيام مستحيل ينتحر ، بالعكس ده بيندم على كل اللي لحظها ضيعها من عمره ، أنا

حاسس الإحساس ده دلوقتي .

يتدخل "عبد اللطيف" مرة أخرى :

- ابنك تفكيره غير تفكيرك ، نبيل عنده ضغوط نفسية كبير ، ولو خدعناه وقلنا له ان عنده سرطان وفاضله أيام مش هنضمن أبدا رد فعله ، ممكن يحس باليأس ويعتزل الحياة أكثر ، يعني الحل ده ممكن يجيب نتيجة عكسية .

- وممكن ينصلح حاله .

- أنا مش موافق يا مصطفى .

- يعترض الدكتور "جلال" ضارباً بإحتمه على ركبتيه ، ويقوم ليغادر الجلسة ، لكن "عبد اللطيف" يمسك بذراعه ليمنعه:  
- استنى بس يا جلال..

- استنى ايه ده عايز يدمر الولد ، ثم يُدير وجهه ناحية أبي ويقول:

- شوف يا مصطفى أنا مقدر حالتك الصحية والنفسية ، وعارف ان الولد فعلا محتاج يتغير ، بس مش لازم يتغير على مزاجك انت ، سيبه للحياة تعلمه .

- الولد لو متغيرش هيضيع كل اللي بنيتة .

- أنا عندي حل وسط.

يقولها الدكتور "عبد اللطيف" كأنَّ ذهنه تفتَّق عن فكرة لامعة، فينتبهان له: سيب له وصية زي اختبار كده، لو منفذهاش يبقى مفيش قدامنا غير الحل ده.

- اللي بتقولوه ده عبث والله، أنا لا يمكن أشارك في اللعبة دي.

يعترض وأشاهده يخادر، من تحت كاميرا المراقبة ، بينما أيُّ يهزُّ رأسه راضياً: أنا موافق على الحل ده، هسيب له وديعه في البنك لو فتحها ونفذ اللي فيها يبقى ناوي يتغير، أما لو عاند ورفض، يبقى لازم يخوض التجربة القاسية دي.

- طيب وهنجيب تحاليل طبية نقتعه بيها ازاي، افرض أخذ التحاليل وسأل في مكان تاني.

- اكتب اسمه على تحاليل المرحومة يا عبد اللطيف.

يوميُّ برأسه فيبدو أنه اقتنع، وينتهي العرض، وتنتهي معه بقايا ما في نبضي من حياة ، الطعنة هذه المرَّة أعمق من أن أحتويها، خنجرها يسافر في خاصرتي إلى الحد الذي لا أملك أمامه إلاَّ اشتهاة الموت، كيف حملت الحياة بين رحمها بشراً مثل أبي؟ لم يدُرْ بخُلدي قط أنه يمكن أن يكذب عليَّ في الموت،

وينسب لي تحاليل أمي، ولم يدُرْ بخُلدي أن الإنسانية الوحيدة التي استسلمت لحبها بكل جوارحي يمكن أن تطعنني بهذه القسوة.

أعود إلي منزلي أشلاء إنسان فتستقبلني "رهماس" بعناق دافئٍ لكني أبعدھا ، أمسكھا من كتفيھا ، مخترقاً ببصري عينيھا المندھشتين المبتسمتين ، وأواجهھا بكل شيء :

- قبلتي على نفسك؟

- قبلت على نفسي ايه؟

- مش عارفه؟!

- في ايه يا حبيبي؟ بتتكلم ليه كده ؟

- قبلتي على نفسك تشاركي في مؤامرة ضد انسان مسالم، عمره ما أذاك في حاجه؟ انا عملت لك إيه علشان تتسببي انت وأبوك اني انتحر؟ إني أعيش في عذاب، وألم لشهور مستتي فيها لحظة موتي.

تنظر لعيني غير مصدقةٍ ما أقول ، وَقَعُ المفاجأة عليها كان قاسياً، يبدو أنها نسيت أو كادت أن تتناسي كذبتها الكبيرة في غمرة حياتنا سوياً ، أنساها عشقنا ما سَعَتْ دائماً أن تخفيه، تسكت وتحدِّق بي غير قادرة علي التفوه بأي كلمة من شأنها

أن تهديّ هذا السرّكان الثائرَ بداخلي ، تطبق جفنيها كأنها  
تستدرّ بدموعها التي أخذت تنساب علي وجنتيها المغفرة  
مني عن كل العذاب الذي سببته لي، ولكن عيني تنكرها ،  
تظل جامدة محدقة فيها ، حتى تفتح عينيها المغرورة تقول  
فيما صدرها ينتهج: نبيل ممكن قبل ما تحكم عليا بأي شئ  
تسمعي ؟

أحدّجها بنظرة ملام ، غير مبالٍ بتلك النظرة الذليلة في  
عينيها، فتستطرّد متوسلة :

- أرجوك بلاش النظرة اليي شايفاهها في عينيك، النظرة دي  
كفيلة إنها تموتن. حبي ليك كان حقيقي مش مزيف يا نبيل،  
مشاعري ليك كانت الحاجة الوحيدة الصادقة في كل الكذب  
الي مريت به، أنا من أول يوم قابلتك فيه وأنا حسيت بشيء  
غريب دخل قلبي، متصورتش أبدا أنه ممكن يكون حب،  
تخيلت في الأول إنه أعجاب بيك كفنان أو مجرد ارتياح، لكن  
بعد كل مرة كنت بأقابلك وأشوفك كنت بتأكد ان اللي بحسة  
ليك ده حب حقيقي، فكرت أتراجع عن الكذبة ومكملش  
لكن ده كان هيكون السبب في بعدي عنك، وأنا كنت بتمني  
وجودي جنبك في كل لحظة من حياتي، عشان كده رضيت  
وقبلت أشارك في اللعبة دي، لكن بيني وبين نفسي كنت  
بحتقر نفسي لما أتخيل أنك ممكن تحبني وانت مش عارف

إني كذبت عليك .. فكرت كثير أعتفلك بالحقيقة من أول يوم  
لكن خفت .. خفت تبعد عني وتسيني انا بعترف إني غلطت  
لكن علشان بحبك

وتقترب منّي قليلاً فتتحسّس بأناملها خديّ وتهمسُ:  
أرجوك سامحني وأنسي أي حاجة فاتت وخلينا نعيش من  
جديد.

أعرّضُ قائلاً: أزاى أسامحك وانت كنت كل يوم بتشوفيني  
بتعذب أزاى أسامحك وانتي خلّيتني افكر في الأنتحار لولا ان  
ربنا نجاني، أزاى هنسي كل الألم الي عانيته بسببك، للأسف  
يارماس الألم ده بقى محفور جوايا وكل أما أشوفك هفتكره.

تبكي بحرقة، مُمسك بذراعي لكني لا أنعاطف معها، أدفعها  
بعيداً وفي صدري تموج عذابات الأيام التي استعصى علي  
إحساسي الشفاء منها .

- للأسف أنا مش هعرف أبص في وشك تاني.



يحرك رأسه المنير ناحيتي، فيطبق جفنيه ويفتحهما، يعدني  
أن نلتقي .

أصمّت لفترة طويلة دافئة الإحساس تنتهي بأن أنزع  
السلاح من جيبي، يتلاشى طيفه الذهبي، كأنّ السلاح أخافه،  
تلم الشمس خيوطها كعروس ترفع ثوبها عن تراب الأرض،  
وتغيم السماء كأنها تزفّ الحياة إلى قدر الموت.

أجلس فوق مكعب التبن وأدفن رأسي بين كفيّ، أحاول أن  
الملم أشلاء أفكارني لأصل إلى قرار أخير، أبي يدبر الحياة وهو  
على قيد الموت، بالجبروت هذا الرجل، لم يترك لعنقي فرصة  
أن يمتدّ ليستششق الحرية ولو لحظة خارج سياج سيطرته،  
لكنّ ذكاه خانه هذه المرة، فانا أمتاز عنه بشيء لا يمكنه  
تعويضه، أنا حيّ ولا زلتُ أملك القرار، لا أنكر أنّ الحياة التي  
تسري في أوردتي شاحبة، وأنني أشعر بأفولها لحظة بعد أخرى،  
لكنّها ما زالتْ تكفيني للفوز.

أقلّب المسدس في كفيّ وأتأمله ، كم كانت حياتي مثلك  
تماماً يا صديقي، باردة وجافة ، أغرز ماسورته في جانب رأسي،



### (يمكن أن نبقي)

نسيرُ نحو القدر بأسرع ما يسير هو نحونا، لأنه كُتِبَ  
علينا ولم نُكْتَبْ عليه، نندفع إلى نهاياته مثلين بصحائف  
كتبها قلّمه هو بإرادتنا نحن، وبداخلنا طوفان يجرفنا نحو  
حتمية المآلات وأرصفة الوصول.

أعود إلى المرابط مكسوراً، فأذهب إلى حظيرة الخيول، أحمل  
سطل الماء وأدفع باب بوكس قمر لأدخله ، أجده على حاله  
القديم، مُغْبِراً وفي أركانه تتمدد شبك العناكب، لم يطأه حافر  
فرس من بعده كما وعدني أبي ، يتراءى لي طيفه تحت خيوط  
الشمس المتسللة من النافذة الصغيرة، كأنه فرس مغزول  
من نور، ساقه القصيرة سليمة ومتوهجة أكثر من أخواتها،  
أملس على ظهره فأشاهد ما حول كفي يضيء، وألامس أيضاً  
دافئاً شديداً النعومة، يميل بعنقه المَقْوَس الجميل ليشرّب من  
السطل، فأضع خدي على وميض صدره وأهمس:

- يا ترى يا قمر ممكن نتقابل ثاني؟ ولا ده بيحصل لأرواح

فوق أذني مباشرة، أقول لأبي كلمة واحدة أخيرة :

- خسرت.

أغمضُ عينيّ ، أبتسم ، أضغط الزناد .

